د. زهيرة البيلى

زنقــة اليــاسمين

قصص قصيرة

الناشر
مدبولى الصغير

زنقة الياسمين

د. زهيرة البيلى

زنقة الياسمين

الناشر: مدبولى الصغير

٤٥ شارع البطل أحمد عبد العزيز

تليفون: ٣٤٧٧٤١٠ _ ٣٤٤٢٢٥٠

المؤلفة: د. زهيرة البيلى

التنفيذ الفنى: عفت إبراهيم

المشرف الفنى: عاطف منصور

رقم الإيداع: ٢٠٠٢/٢١٨٩ الترقيم الدولى: 977-286-146-1

إهـداء..

إلى النفس الهائمة التائهة..

إلى روح العذوبة.. إلى الحلم المحطم الواهم..

إلى اكذوبة الحياة!!


زنقة الياسمين 1
هاك قلبي..
كزابلانكا
***



أتعبث بى أيها القدر، ألا يكفيك استسلامى وخضوعى، قيامى وسجودى. قلت: أرحمنى فإن أشرعى طوع رياحك، تميل معها تموج، تئن، تتهادى حتى لا تنكسر.

رفعت يدك عنى، لكن ها هى ذى نفسى تتحسس طريقها، تتوق إليك. تتلمس الشجاعة، تناديك، تتوسل امنحنى بعضا من قوتك ولا تدعنى أعرف سرا من أسرارك. لكن الصمت بقلبك يبوح، يبحث عن دفء يذوب بين كفيك.. تعلقت بك أتلظى بالشوق.

قلت لك:

ـ لا أريد أن تضيع منى نفسى..

ـ لا تخافى، فلست ذلك الهمجى الوحشى. ما أريد بك شرا، لكن دعينى أزيل التراب عن حبة اللؤلؤ.

ملت برأسى على كتفك وقلت:

ـ حين جاء الليل غاب النوم عن عينى. بعد أن روضت نفسى مرارا لم يعد فى الأمر صعوبة. استغيث بالسماء، بالضباب، غرقت مدينتى وسط

الأمطار، وسط السيول، فحاولت أن أتعلق بسحابة أفكارى.

وسط البرودة وقسوة الصقيع قدمت لك فنجان الشاى بيدى. نظرت إلى عينى الساخطتين وقلت بشوق:

ـ لقد خلقت المرأة لخدمة الرجل.

نظرت إلى عينيك المشتاقتين تريدان أن تضمنى، أن تلومنى بعد أن طال انتظارك وصبرك، فداعب النوم جفنيك، بعد أن حملتك صفحات الكتب إلى أحلام بعيدة، ربما بعيدا، بعيدا عنى.

أوقعت بك فى مصيدة عبودية الرجل للمرأة منذ الخليقة وحتى اليوم، لتثور عليك نفسى ويفور بركان حريتى واستقلالى. لكن عينيك التى سألتك عنى يوما قالت:

ـ لم يكن هذا جوهر حديثى لك بالأمس، بل أنت المرأة التى تتوق لها جوارحى. فالعشب لا ينبت فى أرض قاحلة، وأنت لست بأرض قاحلة. هذه حقيقتى، أطلقها، أبوح بها فافعلى بى ما شئت.

أفضيت لك بجوارحى، بعذاباتى عبر الزمان وأسلمت لك وعودى.

قلت لى:

ـ أريد أن أقول لك إن..

فجاءت ابتسامتى لتكون صدى لصوت ساخر حفظ عن ظهر قلب غرور كل قناص.

فأسرعت بالقول:

ـ لن أكمل.. فأنت تضحكين مما يجول به صدرى.

قلت:

ـ عفوا.. إنما أنا أشعر بعبق كلماتك ورحيق همساتك. أنت خفقة القلب، وأنا أخجل من نفسى.

وسمعت صوتك العذب يغنى فى أذنى، يطربنى، يبوح بما لا تحمله الكلمات.

نظرت إلى السماء عبر نافذة الطائرة وقلت لى:

ـ انظرى.. هذا السحاب يلفنا، يحيط بنا. هذه الترنيمة ولدت، ألحت بداخلى عندما رأتك عيناى لأول مرة. أذكرينى هناك بعيدا وسط جبال أطلس الشاهقة، وسط قمم الثلوج. أذكرى رجلا أحبك..

***

داخل القصر الهائل، وسط القاعات الواسعة والجدران الشاهقة لاح لى طيف أعرفه. فاتسعت حدقتى عينى تتبين تلك الملامح التى أطلت وسط الظلام، تأكدت منك قبل أن ترانى. كنت حزينا شارد الذهن، لكن المفاجأة غيرت ملامح وجهك، كسته بنور الفرحة والدهشة، فسعدت أنا لمكانتى السحرية وسط الكائنات.

أقبلنا عبر البهو الرخامي الممتد، تبادلنا قبلات ناعمة، حارة لكن خاطفة. فسريعا ما اقتلعت نفسى التى وجدتها تطوق إلى أحضانك وصدرك الحلو الدافىء.

أحاطت بنا الأصنام والتماثيل من كل جانب. توقفنا، تبادلنا بضع كلمات العتاب الناعمة، ثم جذبتنى من يدى برفق وقلت:

ــ تعالى لأريك أين كنت، ومن أين أنا آت الآن...

صعدنا معا بضع درجات حجرية. وسط القلعة القديمة التاريخية وهناك عند أعلى الأسوار كان صوت الأمواج الممزوج برائحة المحيط فى انتظارى. وقفت أمام المشهد الرائع وقلت لى:

ــ انظرى إلى أعلى، ها هو ذا القمر يتوسط السماء. سألته عنك اليوم، وها أنت ذا أمامى.

قلت:

ــ هذا المحيط بأمواجه المترامية يبوح بما يحمله لك قلبى.

قال بصوت حملت نبراته كل الوعود:

ــ سأذهب وأعود إليك من جديد..

عبر كلماتك الأسطورية وهمساتك الواعدة، ابتلعتنى شفتاك تبغى المزيد.. المزيد من قوتى وضعفى. وابتلعتنى رياح الواقع التى ألحت بقسوة

«عودى من حيث جئت.. عودى». انتزعت نفسى من بين شاطئيك قبل أن تنساب.. تنساب منى روحى.

***

أيكفينى أن تمر بحياتى مثل البرق، الرعد، أشعر به عندما تكون بجانبى لتزلزل كيانى. أتحسس وجهك وتتحسس ملامحى، هناك وجوه لا تمحوها السنون. هناك تجاعيد لا تعرف للنفس طريقا، سنون البعد والحرمان لا يحسبها الزمان. لحظات العمر هى رحيق الحب.. نسمات الوصال والقرب.

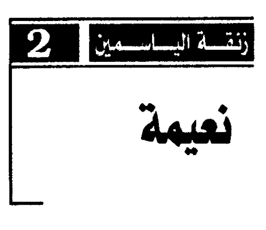
فتحت لك أبوابى فأطل على وجهك الباسم العاشق المتعب الحانى. أغرقت وجهى بقبلاتك فتوقفت خطواتى، أبعدتك عنى لأغرق فى بحور عينيك الزرقاوين الصافيتين. وكانت دهشتى عندما تأملتك فلاح لى عالم يموج بالقنابل.. بالمفرقعات بالحروب بالحجارة.

تمددت بجانبى وقلت لى:

ـ ضعى رأسك الحبيب على صدرى العارى.. أريد أن أشعر بخلاياك، بجزئياتك تتسلل مسامى. أشرب، فأجترك عندما يزداد عطشى وبؤسى. أخفى وجهى بين طيات صدرك حتى تنسى أذناى طلقات النيران، وحشية القتل. أجوب العالم مغتربا وأبحث عن يديك فلا أجدنى إلا عبدا أجوس تحت قدميك، أقبل أطرافك. أتعبد فيك محرابى.. وأسكب عليك صلواتى. العدو يتربص بأطفالى فأصرخ لأناديك أنت أمى حريتى وأمانى.

■■■




زنقة الياسمين 2
نعيمة

❊❊❊



خرجت من البيت ذى الجدران البيضاء، أغلقت خلفها الباب بعد أن تعللت بكذبة بيضاء تعفيها من تناول العشاء. سارت ببطء عبر الزقاق الضيق، تدق البلاط الصغير القديم بقدميها، فصعدت إلى أذنيها رنات كعب حذائها العالى التى اختلطت بصوت الأمواج المترامية المرتطمة على الصخر. رنات وصوت منتظم توافق مع إيقاع أفكارها ودقات قلبها التى كادت أن تتسلل من داخلها.

مشت بجانب السور الأبيض للقلعة القديمة التى تطل على الأطلنطى. بين فتحات هذا السور، اختارت لها مكانا فجلست تتأمل ظلمة المحيط، تحاول التحكم فى الدموع لتظل حبيسة عينيها.

تزاحم الموج أمامها فى فورانه الأبيض، اختلطت بداخلها المشاعر والأحاسيس. أسندت رأسها على كفها واستسلمت لأفكارها، منذ قليل كانا يسيران عبر الأزقة تحت ضوء القمر الفضى. قالت له:

ـ القمر مكتمل الليلة..

ـ نعم.. لا توجد حوله هالة بيضاء، وهذا يعنى أن الجو سوف يتحسن.

سارا جنبا إلى جنب يدقان الأرض بقوة ويتحدثان بحذر، يخشى كل منهما أن تجرح أو أن تخدش مشاعر الآخر.

اليوم، كان يرتدى الملابس البيضاء الناصعة، فبدا لها شديد الأناقة. تعمد الاعتناء بنفسه من أجلها، لكن الفرصة لم تسنح لتعبر له عن إعجابها بذوقه الرقيق.

لملمت بعضا من شجاعتها لتخرجه من حكاياته التى أخذ يرويها والتى لا تهمها فى شىء والتى تعمد الغوص فيها هربا من نفسه، فقالت:

ـ أيمكن أن أتحدث معك بشىء من الحرية؟

قال بسرعة كأنه ينتظر منذ زمن طويل:

ـ أرجوك، عاملينى بلا تحفظ..

استطردت:

ـ لن أنسى فى حياتى هذا الطريق الذى نتمشى فيه معا جنبا إلى جنب.

لم يرد، لكنه غير الحديث وهو يجذبها من يدها برفق. قال:

ـ تعالى من هذا الطريق، فهذا ابن عم لى قادم علينا ولا أريد أن ألتقى به.

ـ غاص بها فى عدة أزقة ملتوية تجهلها تماما، لكنها استسلمت له وعادت تقول:

ـ كنت أقول لك إننى لن أنسى.. فلماذا لا ترد على؟!

حدق فى وجهها وأجاب بإحساس البخيل الذى لا يريد أن يصرح:

ـ لسنا فى مجادلة، لكن الكلام الجميل يسمع فقط ولا يحتمل الرد.

ثم توقف أمام بيت صغير بسيط، له باب أخضر نصفه مفتوح يطل على الشارع، فاجأها:

ـ فى هذا البيت ولدت.

ثم التفت إلى باب آخر بالقرب من البيت.. وقال:

ـ وفى هذا الكتاب تعلمت.

ثم أشار إلى بعض الأطفال البسطاء الأبرياء وهم يلعبون:

ـ ومثل هؤلاء الأطفال كنت.

ثم نظر إلى عينيها وأخذ يردد:

ـ قلت لى توا أنك لن تنسى أبدا هذا الطريق الذى مشيناه معا. وها أنا ذا أريك المكان الذى ولدت فيه، ذلك المكان الذى لا يعرفه أحد إلا أنت.

تملكتها المشاعر الحبيبة الحبيسة فمالت قليلا على كتفه، قالت:

ـ هل لى أن أعرف ما الذى يجذبنى إليك؟

قال بهدوء:

ـ ربما لأننى أختلف فى نظرك عن الآخرين!

أدركت بذكائها أنه يريد أن يوصلها للمعنى المبهم بنفسه، لكنها ردت قائلة:

ـ ألتقى بأناس كثيرين مختلفين، نتحدث ونتحاور، حتى الكلمات الناعمة الرقيقة أسمعها تجوب الفضاء من حولى، لكننى لا أعبأ.

توقفت فجأة، أخذ ينظر إليها وقال دون أن يدرى:

ـ أحقيقة ما تقولين؟!

قالت بثقة:

ـ ألا تدرك ذلك بنفسك كل يوم؟

فهز رأسه فى صمت قطعته بقولها:

ـ ربما جئت إلى هذه البقعة من الأرض بحثا عن ذلك الشىء المبهم الذى أحاول أن أتحسسه من خلالك. فلم أنس أبدا حديث الماضى عندما قلت لى عبر القارات.. إنك مازلت تحمل لى أجمل الذكريات.

قاطعها على الفور دون أن يدرى، كأن نفسه قد انفلتت منه:

ـ وأنا لم أنس.. لم أنس أول لقاء لنا، ذلك اليوم الذى رأتك فيه عيناى..

ثم توقف عن السير، أخذ ينظر إليها بحيرة وقال:

ـ لكن، ماذا أفعل؟!

ـ يكفينى أننا نتحدث. يكفينى ألا أشعر أنك تحاول أن تضع حائلاً بين عقلينا، بين روحينا.

أقتربا من الباب الخشبى الكبير، وقبل أن يدق ليفتح له الخادم قال لها:

ـ ها هو ذا بيتى..

عندما اجتازا عتبة البيت ذى الجدران البيضاء، أخذ يجوب بها المكان. يفتح القاعات، الصالونات، يفرجها على لوحات أشهر الرسامين، يسمعها أجمل مقطوعاته الموسيقية الكلاسيكية المفضلة.

أحاطت بهما الكؤوس والشموع من كل جانب. لكنها لم تكن تنصت لشرحه، فما كان حبيسا فى صدرها أقوى وأعنف بكثير.

كان يعرف أنها ليست معه بل فى عالم آخر، وكان عليه أن يخفى غيرته وشكه.

جلسا وجها لوجه فى صحن البيت.. تحت ضوء شمعتين وضعتا بعناية فائقة، اقترب الخادم الأسمر، وقف فى صمت.

مال عليها بحنان ليسألها:

ـ ما رأيك فى بعض الجين بالصودا؟

ردت بصوت ملؤه الحزن:

ـ نعم.. لكن بكثير من الثلج أرجوك.

بعد أن أشعل سيجارة، أخذ نفسا عميقا ثم استطرد فى الحديث عن أشياء لم تسمعها ولم تفهمها لكنها أجابته فى موضوع آخر:

ـ أتدرك.. أنك سببت لى أكبر ألم فى حياتى؟!

كانت تشعر أن هذا العالم خلق لهما فقط. لكن فجأة بدأ المدعوين يتدفقون على المكان، وبسرعة امتلأت القاعات بالضجيج. أحست كأن الجدران البيضاء سوف تطبق عليها من كل جانب وأنها لم يعد لها مكانها الخاص. تناولت الكوب بالثلج واحتفظت به بين يديها تحاول أن تتعلق به حتى لا تسقط.

دارت نظراتها فى المكان حولها، لا تفهم النكات التى انطلقت مثل طلقات الرصاص. لكنه ظل جالسا بالقرب منها، يحاول أن يتابع ويشارك فيما يدور.

ظلت عيناه تحرسانها، لا تفارقان تعبيرات وجهها التى بات عليها من الصعب مداراتها. تساءل بينه وبين نفسه «أهذه هى التى هربت منى أول مرة؟!».

انتهزت فرصة سريعة ومالت عليه ببضع كلمات. فقال بدهشة وحزن واضحين:

ـ ألن تعودى مرة أخرى؟!

ـ سامحنى!!

***

غسلت رئتيها بهواء المحيط المنعش لعله يعيد إليها ترتيب وتنظيم أفكارها ومشاعرها. غارقة وسط الظلام، اقترب منها شاب صغير قال بكلمات مرتعشة:

ـ هل يمكن أن أتحدث معك؟ إننى أراك حزينة..

قالت له بهدوء:

ـ أرجوك.. أفضل أن أبقى مع نفسى..

ـ أريد أن أتحدث مع أحد، فليس لى أصدقاء.. ثم أنك شديدة الحسن والجمال.

قالت له على الفور حتى تعيده إلى مكانه السليم:

ـ إنك فى عمر أبنائى، فماذا تدرس؟

ـ أنا فى كلية الحقوق، واضح أنك تحبين البحر. لقد قيل عنه إنه مثل روح الإنسان، أحيانا يكون هادئا وأحيانا ثائرا.

نظرت إليه لتتأمل سنوات عمره العشرين وبإحساس الأم قالت له:

ـ أنت على حق يا ولدى.

ثم تركته وسارت بمفردها حتى وصلت إلى ساحة صغيرة لا يضيؤها إلا بضعة فوانيس بدائية عتيقة، لكنها جميلة. أمام السور العالى للقلعة لمحت طفلا صغيرا لا يتجاوز الثانية أو الثالثة من العمر. وقف ممسكا لعبة صغيرة

من البلاستيك، واضعا أصبعه فى فمه. بعد أن تجاوزته بعدة خطوات عادت إليـه من جـديد، مـالت عليـه وأخـذت تسـأله عن اسـمـه. لكنه لا يجـيب، ففتحت يده ووضعت بها قطعا من النقود وقالت له:

ـ ألا تريد شراء بعض الحلوى؟

أطبق يده الصغيرة على العملات المعدنية وجرى يحمل داخل صدره فرحته المكتومة.

تهادت فى سيرها بعد أن قررت العودة إلى الفندق سيراً على الأقدام. كانت فى حاجة لنسمة الليل الباردة حتى تتناثر تماما مشاعرها الوليدة. فاجأها صوت شيخ عجوز يرتل القرآن بصوت حلو عذب. فقالت لنفسها «هذه الآيات بعث الله بها إلى لتكون البلسم والدواء».

اقتربت من الرجل الكفيف الذى تربع على الأرض بجانب السور الأبيض ووضعت فى يده بعض النقود. ثم استأنفت سيرها.. ومازال ترتيل العجوز يطرب أذنيها عبر الشارع الطويل الممتد حتى اقترب منها أحد المتطفلين وهو يقول:

ـ أنت صغيرة جدا على هذا الحزن والهم البادى على وجهك، لماذا كل هذا الغضب؟

لم ترد.. فأكمل:

ـ أنا أيضا لدى من الهموم ما يكفى.. إننى مطلق ولى ابنتان صغيرتان، لا أستطيع حتى أن ألمسهما.

استمرت فى سيرها وصمتها، تسمع رغما عنها ما يقول، بدت و كأنها شبح جاء وسط الليل من عالم آخر.

بمجرد أن خطت عتبة الفندق، اتجهت قدماها دون أن تدرى حيث انبعثت موسيقى الديسكو الصاخبة. هناك وسط جنون الرقصات الشابة سوف تذوب. جلست على درجات السلم الذى يحيط بالحلبة تتفرج على هؤلاء الشباب وهم يتمايلون يسارا ويميناً فى حركات سريعة.

عندما بدأ الفجر يطل بنوره، نهضت لتلقى بجسدها المتعب وسط الفراش الأبيض. بهدوء فتحت باب غرفتها التى تطل على حمام السباحة، بعد أن أضاءت النور الخافت، دارت حول نفسها فوقع بصرها على شىء مكوم فى ركن الغرفة.

اقتربت بدهشة، فوجدت زجاجة ماء معدنية، زجاجة شامبو، علبة صابون، وقطعة من ورق التواليت كتب عليها بقلم جاف أحمر «نعيمة»؟!

هنا فقط، أفاقت من غفلتها الطويلة، انها كانت على موعد مع «نعيمة»! تلك الفتاة الفقيرة البسيطة التى تكاد تكتب اسمها بصعوبة، والمسئولة عن نظافة حجرتها. تلك الفتاة التى لا تفارق الابتسامة شفتيها، قالت لها فى صباح الأمس وهى تفتح باب الغرفة بهدوء وحنان:

ـ أمازلت فى الفراش.. لن أوقظك من النوم، لتنعمى بقليل من الراحة. سأذهب، وأعود إليك فيما بعد. لكن لا تنسى أن تلبى دعوة الليلة عندنا لتناول الشاى بالنعناع.




زنقة الياسمين 3
البحث
عن ميناء

أصابتـها الدهشـة من هذا الذى بدأ يحدث لهـا، أيمكن أن يكون هذا الميناء ذلك الذى تبحث عنه؟!. هذا الميناء الجديد مازال فى الإعداد، لقد رأت موانى كثيرة عبر القارات، موانى حديثة وموانى قديمة. لكن هذا الميناء بالذات لم يولد بعد، لكنها تراه، ملامحه ليست غريبة عليها.

لم يعد وجهه يفارق عينيها، يلوح لها بين لحظة وأخرى، هاتان العينان جذبتا عينيها عنوة. أحست بالحرج فطردت نظراتها بعيداً عنه، وحاولت أن تتفحص وجوه المعزين. لقد أصبح العزاء هذه الأيام «موضة»، امتلأت الصالونات الفاخرة بنساء يرتدين السواد، لكنهن خرجن توا من عند «الكوافير»، الماكياج والحلى وضعا بمهارة تماما كما لو كن فى سهرة.

وقف بعيدا يرميها بنظراته، قاومت نفسها حتى لا تشعره أنها تراه أو أنها يمكن أن تبادله الاهتمام. لكن الصديقة الجالسة بجانبها لاحظت ذلك، فنادت عليه لتعرفه بمجموعة النساء اللاتى جلسن معا وقالت:

ـ الأستاذ عمرو ابن الأستاذ رجب.. الله يرحمه.

ثم أخذت تعرف الأسماء واحدة واحدة. عندما جاء الدور عليها

ليصافحها ويلمس يدها تمتمت بكلمات غير مفهومة تقال دائما فى مثل هذه المناسبات الحزينة.

أخذ يجوب المكان، لكن فى كل مرة يذهب فيها ليودع أحد المعزين إلى الباب، كان ينتهز الفرصة ليقف فى مواجهتها حيث جلست ليتأملها قليلا. لا يعرف ما الذى يبحث عنه فى هذا الوجه، فى تلك الملامح، فى هذه القسمات..

بالرغم أنها حاولت أن تخفى نظراتها عنه فإن الدهشة تملكتها. ماذا يريد؟! لماذا يحدق فيها هى بالذات؟! الصالونات مليئة بالحسناوات أشكالا وألوانا! ألهذه الدرجة نسيت شكلها ولم تعد ترى نفسها فى المرآة؟! لا، لا.. إنها لم تعد تريد سماع ذلك الصوت الذى يحاول أن ينبعث من أعماقها من جديد، فقد انشغلت بالبحث وستظل تبحث عنه.

عندما خلا المقعد بجانبها جاء وجلس ليحدث صديقتها التى كان يعرفها من قبل. ثم فجأة ترك صديقتها وتسمرت عيناه على وجهها هى بالذات، أحست الصديقة بالحرج وحاولت أن تكمل حديثها، لكنه نهض وابتعد مرة أخرى لكن ليراقبها من بعيد ويتأملها فى صمت.

لم تكن فى حاجة إلى أن تنظر إليه لكى تشعر بنظراته وهى تلفها، تحيط بها من كل جانب.

عندما نهضت مع صديقتها لمغادرة المكان. وقف عند الباب انتظارا ليودعها، ليصافحها ويلمس يدها مرة أخرى.

أحست بالارتباك.. تلكأت قليلا لتعطيه فرصة الابتعاد، لكنه ظل جامدا فى مكانه. وعندما اقتربت منه مد لها يده، فمدت يدها لكن دون أن تنظر إليه، ليحملها المصعد ولتختفى بعيداً.

ظل وجهه عالقا بمخيلتها، لا تريد أن تنسى تلك التعبيرات المحببة التى نادرا ما تعلو وجوه الناس. لا تعرف عنه الكثير، لكن هذا أفضل. تحمله معها وسط الظلام أحيانا، هناك بعيداً يسيران جنبا إلى جنب على شواطىء دوفيل الساحرة الخالية من الناس. وأحيانا أخرى تراه معها فى غرفة أنيقة فى أحد فنادق برلين.

أمازالت تبحث عنه وسط هذا العالم؟ ذلك المرفأ أين هو؟ ألا يبحث عنها هو أيضا؟ ما سر هذا الطيف الذى يلوح بحياتها من جديد؟ أمازالت تملك القدرة على البحث؟

هذا الطريق بدأته من جديد، الأمل، يشع مع نور كل صباح. هذا الرأس فى حاجة إلى كتف يستند إليه عندما تثقله الهموم وتعصف به الأوجاع حتى لو كان كتفا من حجر الميناء. تريده أن يقترب منها أكثر فأكثر، أن يرقصا معا على لحن الأمواج المرتطمة بالرصيف الواسع الخالى، يضمها إليه، يتحسس وجهها برقة ونعومة. لا يهم ما يحدث بعد ذلك، لكنها كم تتمنى هذا الشعور، إنه الإحساس ينبعث بداخلها مثل طوفان يريد أن يقتلع كل زيف، كل جمود..

لم تبحث عن هذا الميناء بالذات، لكنه جاء فى يوم لم تكن تنتظر فيه شيئاً، وجدته ولا تريد أن تفقده. فعندما يغلبها النعاس، ويثقل النوم جفنيها، تصحبه معها فى رحلاتها الشراعية عبر خيوط الليل وحتى الصباح، ثم تبحث عنه من جديد وسط الناس، وسط الأمواج ليكون دائما الميناء الذى تبحث عنه أبدا.

سجدت على الأرض.. وجهها متجه إلى القبلة. تحت القبو الفاخر، تدلت نجفة أطلت عليها من أعلى، فاجتاحتها مشاعر غريبة وقد لمست ملامحها أرض الشهداء. التراب والرمال كان لهما عبق مسكر مثل البخور، أذكى رائحة عرفها أنفها، عبيرات من السموات البعيدة. أحست بفوران يجول بصدرها، فشحب وجهها.

سجدت مرة أخرى فشعرت به على أكتافها يلفها بيديه وجسمه. انهت صلواتها وخرجت من المسجد لتشعر بالحمرة تكسو وجهها كأن الحياة قد دبت فيها من جديد. دماؤها عذبتها، لكنه يلح عليها لكى تعيش. لكى تتمسك بالحياة من أجله حتى يظل هكذا يطوف من حولها. كان قد أمسك بطفلتها بين يديه وقال لها بحنان:

ـ اعتنى بها من أجلى..

وكانت الوصية، فجبنت على الانتحار من بعده. عاشت من أجل نفحة روح بعثها فيها، عاشت لتواصل البحث عن حب مزق صدرها، حطم

ضلوعها وقبض على عضلة قلبها، فانتفضت ليرتعش كيانها.

حاولت ابتلاع دموعها عدة مرات وهى تجلس على بعض الحجارة التى رصت لتحدد بعضا من معالم الميناء الجديد الوليد. فاضت بحورها تحفر على وجنتيها لعنة الانتظار. ثم نظرت إلى مينائها الذى تعرفه جيدا.. وقالت بصوت حزين:

- يجب أن تظل لى وحدى.. إن كلاً منا يشبه الآخر، إننا شديدا الحساسية لكننا معقدان. فخيوط الدبار من السهل التعرف على عقدها، لكن خيوط الحرير لابد أن تتشابك.. وما بيننا كان دائما أرق وأنعم من الحرير.

■■■


زنقــة اليــاســمين
4
زنقة..
الياسمين

***



كم كنت أتمنى أن تكون أنت الذى يجلس فى هذه السيارة اللعينة بدلا من شبح الكراهية الذى احتل المقعد بجانبى. هذه السيارة التى أجوب بها أنحاء المدينة التى أراها لأول مرة.. سنوات مضت كف فيها لسانى عن الكلام، فاثرت الصمت والانتظار، ووقفت أرقب نور الصباح.

فوق التل الصغير وقفت أنظر لتلك البقعة من الأرض الدائرية الخضراء. هنا كانت مدينة ساحرة ابتلعتها الزلازل، وها أنا ذا استعيد ذكرياتى.. لكن ليس الماضى، فمازال الحاضر حاضرا بيننا. فكيف لى أن اقتلعك من أغوار نفسى؟ الزلزال الكريه يريد أن يدمر بقايا خلجاتى، نظرات عينى مازالت ترسم صورتك. أتعرف ما الذى يحمله سريان دمائى؟ أيعود لسانى لينطق ويتغنى فيفضح نفسى؟ لكنى لن أبوح.. ألم تسمعك الزلازل وأنت تردد فى الفضاء الواسع «عودى إلى وكفى.. كفى عذابا.. وكفى حرمانا»

تركتك تتلمس لحظات يحسب من خلالها العمر. قسوت عليك مثل غضبة الزلزال، مثل فوران البركان، كم لعنت ذلك القدر. لكن بمقدار بعدى عنك، التقيت بك من جديد، أكثر فأكثر. الجنون أن أشعر بك كما

كنت بالأمس، و كما تريد أن تكون في الغد. قلت لى «لم يعد للدنيا مذاق من بعدك». لكن يا ليتك تعرف مرارتى، لمساتك مازالت محفورة على جسدى تنطق بها الظلال من حولى. بعد أن سرت آلهتك خلا المحراب من كل شيء إلا منى. ماذا أفعل لأتخلص من همس الزلزال الخبيث فى أذنى؟.

توقفت بى السيارة أمام الفندق الصغير المطل على المحيط. حمل السائق حقيبتى الوحيدة وقادتنى موظفة الاستقبال مرحبة إلى غرفة واسعة. إلى هذا المكان هربت، هنا سأخلو بنفسى، سأصفو حتى أغدو ذلك النهر الرائق الهادىء المستسلم لسريانه فمن حسن حظى أن غرفتى كانت فى الدور الأرضى وأمامى فضاء مريح لا حدود له. جذبنى منظر الخضرة المبللة التى غطت الأرض أمامى، مشيت حافية القدمين، فشعرت بنعومة الخضرة المبللة تداعب جلدى. من بعيد لمحت أمواج المحيط البيضاء، ومن قريب كانت الخضرة والأشجار المتراصة العالية.

فى هذا المكان جلست أتأمل السماء والأرض، تاركة مشاعرى على سجيتها. فعاودنى ذلك الصوت المنبعث من داخلى والذى أخذ يلح فى قسوة «آه.. لو كنت معى».

لم أفق من خيالاتى إلا على عدة طرقات ناعمة على الباب، وإذا بى أمام حسناء أجنبية فى مثل عمرى. ظننت فى البداية أنها اخطأت الحجرة إلا أنها أسرعت بالقول:

ــ علمت من إدارة الفندق أنك هنا. فهل يمكن أن أدعوك لشراب؟.

قلت مرحبة:

ـ بكل سرور سألحق بك حالا.

جلسنا وجها لوجه نتحدث. هى تكلمنى عن مهنتها، وأنا أنصت باهتمام لهذا الأسلوب الجديد الذى مزجت فيه بين الرقص التعبيرى وبين الكلمات، لتعبر فى النهاية عن مأساة المرأة فى ذلك العصر ومعاناتها من القلق، اليأس، الخيانة، الحب، الشهرة.. السراب.

اقترب الجرسون، وضع فنجانين من القهوة وانصرف. ثم عاد.. ووضع كوبا من الماء، تراجع إلى الوراء وأخذ يحدق فى وجهى وهو يبتسم.

فقلت له فى دهشة:

ـ ماذا حدث.. أتريد شيئاً؟

فقال بصوت مرتعش:

ـ وجهك؟!

سألت بدعابة:

ـ وماذا عن وجهى؟!

أسرع بالرد:

ـ لونك.. أقصد سمرتك!!

فقلت على الفور.

ـ نعم.. الجو حار فى بلدكم والشمس حارقة.

فقال:

ـ لا.. أنا أقصد.. هذه السمرة النادرة لم أر مثلها فى حياتى.

فابتسمت لتلك الكلمات الرقيقة المعبرة لكن الساذجة أيضا. ثم التفتت لصديقتى الفنانة وقلت لها:

ـ كان أولى به أن يعجب بك أنت، إنك شقراء حسناء.. ومن عادة الشرقيين أن يميلوا إلى الشقراوات.

***

اندمجت فى العمل فكنت لا أعود إلى الفندق إلا فى أوقات أو دقائق قليلة للراحة، أو لأغير ثيابى سريعا أمام إلحاح موعد أو محاضرة. لا أكاد ألمح فيها أحدا من العاملين بالفندق.

فى الصباح بينما كنت أتناول طعام الإفطار بسرعة، إذا بالجرسون الشاب يقترب لخدمتى ويولينى عناية خاصة دون الآخرين. وإذا به يهمس لى بصوت مرتعش حائر:

ـ لقد انتظرتك بالأمس.. لكنك على ما يبدو عدت فى ساعة متأخرة من الليل.

رفعت رأسي ونظرت إليه متفحصة ذلك الوجه الذى أمامى محاولة إدراك معنى السؤال وقلت:

ـ نعم.. إن لدينا عملا كثيرا لابد أن ننتهى منه فى أقل وقت ممكن.

فتشجع.. وهو يرفع الأطباق من على المائدة أمامى واستطرد قائلاً:

ـ إذا كان لا يضايقك.. أريد أن أجلس معك وأتحدث إليك قليلا.

قلت:

ـ لا مانع عندى..

قلت ذلك وأنا أعرف أننى لا أملك ذرة وقت أو حتى لدى استعداد نفسى لسماع مشاكل الأخرين.

مرت الأيام التالية وأنا أعدو مثل الريح، مارة من الاستقبال إلى غرفتى ثم إلى السيارة.. هكذا مثل الطوفان. لا أكاد ألمح العاملين بالفندق إلا للرد على مكالمة تليفونية أو تلقى الرسائل.

من بعيد كنت ألمح ذلك الجرسون، فيأتى إلى بفنجان من القهوة. وفى أحد الأيام نظرت إلى وجهه الحزين فقال لى:

ـ لقد نسيت أننى أريد أن أتحدث إليك..

حدقت فى وجهه مرة أخرى، فإذا بعينيه تزدادان احمرارا، وتطلان بمعانى غامضة تريد أن تفضى بأشياء.

قلت له:

ـ سأعود اليوم مبكرا.. سأراك.

***

فى المساء جلسنا مجموعة من الأصدقاء حول حمام السباحة. فاقترب الجرسون منى بعد أن قدم المشروبات للحاضرين وقال:

ـ سأنتهى فورا من عملى.

قلت ببساطة شديدة أمام الجميع:

ـ إننا نجلس هنا ويمكن أن تنضم إلينا.

نظر إلى بعض الحاضرين فى دهشة كما لو كانوا لم يدركوا معنى ما قلت. فلم تمر إلا دقائق وانضم إلى مجلسنا الجرسون، اشترك معنا فى الحوار ثم بدأ الحاضرون يستأذنون فى الانصراف واحدا بعد الآخر، ذهبوا إلى الملهى الليلى لقضاء باقى السهرة. فآثرت البقاء فى هدوء وسط نسمة الليل الباردة مفضلة الاستماع إلى الأنغام الموسيقية التى ترامت إلى سمعى من بعيد.

التفتت إلى الجرسون الذى كنت قد نسيت اسمه وقلت له:

ـ ما هى مشكلتك؟!

بدأ وجهه يضطرب وارتعش صوته وهو يقول:

ـ ألا تدركين بما أشعر؟!

حاولت أن أبعد عن ذهني المعنى المقصود وبعد أن سألته عن سنوات عمره قال:

ـ أنا فى الثالثة والعشرين.

قلت لنفسى «آه.. ما هذا الذى يحدث لى.. ما هذا الذى أسمعه.. وما سر هذه الفوضى التى تريد أن تعصف بى؟».

قلت:

ـ أمازلت تعيش مع أهلك؟. ألم تجرب حظك فى الدراسة؟.

قال ببساطة:

ـ إننى أنتمى إلى أسرة فقيرة، لذلك فأنا أعتنى بأبوى المسنين، لى إخوة يعملون فى أماكن مختلفة، فاضطررت للعمل ولم تسنح لى فرصة التعليم. فأنا لا أعرف القراءة والكتابة لكننى مع ذلك أتحدث ثلاث لغات.

بالفعل كان الشاب الصغير يتحدث ثلاث لغات، معلوماته العامة جيدة، وفرصة التعليم لم تسبب له أى قلق أو حرج.

قلت له:

ـ لابد أن تحاول على الأقل ادخار بعض المال لتبدأ حياتك وتتزوج.

ـ نعم.. هذا ما أفكر فيه، فقد أدخرت بعض النقود، ليست كثيرة لكنها البداية.

توقف قليلا عن الكلام، ثم أكمل بتردد وبجمل متقطعة:

ـ ما أريد أن أقوله.. إنك لا تفهمين.. ألا تشعرين بى.. إننى..

كان من الصعب على ألا أشعر بإحساسه، فكل شىء فيه يدل على ذلك المعنى، ملامحه، صوته. لكن كيف يمكن لى أن أعقل هذا؟.

***

مرت عدة أيام لم ألمح فيها الجرسون الشاب وعندما سألت عنه أخيرا قيل لى إنه مريض. كان من ذلك النوع الذى يبدو عليه الضعف، إما من سوء التغذية والفقر وإما أنه أمر طبيعى فى تكوينه.

بعد أن سألت عن بيته، حملت معى بعض زهور الياسمين التى قطفتها من حديقة الفندق وسرت فى الشارع الطويل المؤدى إلى السوق.

هناك، وقفت قليلا اتأمل الباعة الجائلين وهم يفترشون الأرض، يعرضون بضاعتهم من توابل، وبخور، وأكواب وآنية.

عندما اقتربت من الساحة الصغيرة بدأت أسأل المارة عن الشاب، فلم أكن أعرف إلا اسمه ووصفة البيت. بالرغم من الحوارى والأزقة الضيقة فإن رائحة النظافة بدت واضحة.

حين أدركت البيت الصغير المكون من طابقين، نظرت إلى اللافتة الموجودة على أول الطريق فإذا بها مكتوب عليها «زنقة الياسمين». طرب

قلبى لذلك التوافق الغريب، ونظرت إلى زهور الياسمين التى حملتها بين يدى وسكت.

صعدت درجات السلم الضيق، النظيف المزركش بزخارف جدارية بديعة تنم عن الأصالة تفوح منها رائحة التاريخ. بيد مرتعشة دققت على الباب الخشبى القديم، فإذا بالجرسون الشاب أمامى يتحامل على نفسه ليفتح لى. أمام دهشته وارتباكه دعانى للدخول مرحبا. ثم استأذننى فى العودة إلى فراشه وطلب منى أن أعد لنفسى كوبا من الشاى.

جلست أمامه أرشف الشاى. ثم قلت:

ـ ألم تذهب إلى الطبيب؟

قال:

ـ لا داعى لذلك، فهذا ألم أعرفه. إننى لا أعانى من مرض، لكن هذا لا يمنع من أننى أتألم. شعرت فجأة أننى لا أريد أن أغادر الفراش.

نظرت إلى وجهه البائس.. وقلت له بصوت حنون:

ـ أريد أن أقول لك أننى سأرحل قريبا.

انتفض فى مكانه وقال لى بحدة:

ـ متى سترحلين؟

أحسست بالدهشة، ماذا؟ أكان يظن أننى لن أرحل أبدا؟ أكان يتصور أننى سأبقى هنا إلى الأبد؟.

قلت:

ـ لم يتبق لى سوى عدة أيام فقط وتنتهى مهمتى.

بصوت حزين أخذ يردد:

ـ لماذا قلت لى أنك سترحلين؟

قلت:

ـ كان لابد أن تعرف.

قال بعصبية:

ـ كنت سأحضر إلى العمل دون أن أعرف. أفضل ألا أعرف فأراك تختفين، ثم تمر بى الأيام كأننى أنتظرك مع طلعة كل شمس. لكن أن أراك هكذا ترحلين أمام عينى ولا استطيع أن أفعل شيئا. إنك لحقا شديدة القسوة.

بعد أن سمعت هذه الكلمات التى لم أكن أتوقعها، سرت عدة خطوات فى اتجاه الباب. ثم التفت إليه وقلت له:

ـ لا تنس أن تضع زهور الياسمين فى بعض الماء.. لا أريد لها أن تموت.

خرجت إلى الشارع.. ونظرت مرة أخرى إلى اللافتة التى كتب عليها «زنقة الياسمين». فى هذا المكان أترك خلف ظهرى مشاعر حبيسة تريد أن يكتب لها الميلاد على يدى. لكنى سرت وأنا لا أريد أن أفكر فى نفسى أو فى حياتى أو حتى فى سنوات عمرى.

وسط جدران حجرتى الواسعة، أحسست بالضجيج بالفوضى تجتاح كيانى. لأول مرة أجد نفسى حائرة لا أعرف ماذا أريد؟. لكننى أحسست أنه من الأفضل فى هذه الحالات ألا أحاول أن أجد تفسيرا لما قد يصادفنا من مشاعر. بما أن الإحساس غير ملموس، فلماذا أريد أن أجد له تفسيرا؟

ممدودة هكذا على الفراش شملتنى الغفوة دون أن أدرى وغبت فى عالم كنت دائما أفضل ألا أعود منه، عالم أشعر فيه بالغياب المطلق، باللانهاية.

***

فى ذلك اليوم الذى بت أنتظره من أجل العودة. أخذت ألملم أشيائى، تلك الحاجيات التافهة الصغيرة، لكنها ثمينة تذكرنا بأماكن تركت آثارها على العقل والنفس. بهذه الأشياء التى قد تبدو لنا تافهة شغلت نفسى حتى يحين موعد السيارة التى سوف تقلنى إلى المطار. قبل الميعاد المحدد بساعة أخذت أرتدى ثيابى ببطء، لكن إذا بى أسمع دقات خفيفة على الباب. فتحت بحذر جزءا من الباب فلم أكن قد أكملت ارتداء ملابسى بعد. كان الجارسون الشاب أمامى، فاعتذرت له وأغلقت الباب لعدة ثوان لأكمل ثيابى ثم دعوته للدخول. ▪

قال بأدب جم:

ـ جئت متمنيا لك عودة سالمة.

نظرت إليه وهو جالس على طرف السرير، كان ينظر إلى الأرض، لا

يقوى على رفع عينيه. فأسرعت بالقول.

ـ أشكرك على هذا الاهتمام.

نظر إلى بعتاب، ثم قال كأنه يؤنبنى.

ـ لا أعرف ماذا سأفعل بعد أن ترحلين؟ غالبا سأترك الفندق، فالموسم قرب على الانتهاء.. سأبحث عن عمل آخر فى العاصمة. أريد أن تبتلعنى المدينة الكبيرة، فهذا أفضل لى.

عندما بدأ صوته يرتعش، وتزاحمت الدموع فى عينيه، تظاهرت بعدم ملاحظة ذلك، فقد كان لابد لى من التماسك. هذا الطفل الذى أمامى، إن شئت أو لم أشأ هو رجل قبل كل شىء. فقد أحسست للحظة أننى أريد أن أمسح على شعره الأسود الفاحم الناعم، وتماسكت.

فنهض مستعدا للخروج. عندما أوصلته للباب مد يده لمصافحتى ومال على ليقبلنى من وجنتى متمنيا لى حظا سعيدا، ثم نظر إلى مرة أخرى بعينيه الدامعتين وقال بصوت حزين:

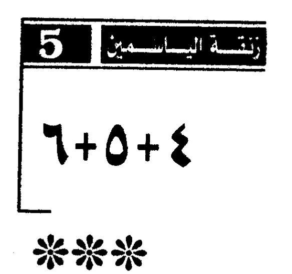
ـ إلى اللقاء.. من يعرف ربما أراك مرة أخرى!

تظاهرت أننى لم أرى تلك الدموع، وأغلقت خلفه الباب.

فى الميعاد المحدد، حملت حقيبتى الصغيرة واتجهت حيث الاستقبال، فوجدت السيارة التى جاءت لتقلنى تقف بالخارج. لكن دون أن أدرى

بحثت عيناى عن الجارسون الشاب، لكنه كان قد اختفى وتبخر أحسست بقلبى ينبض بشدة يريد أن يتمرد أن يثور. لكن بعد أن أخذت مكانى داخل السيارة وانطلق السائق يسابق الريح. نظرت إلى الخط الأزرق بأمواجه المترامية، هذا الاطلنطى لا حدود له ولا قيود. علت الابتسامة شفتى وقد عبثت بأذنى ترنيمة لن ينساها وجدانى «لن أقوى على رؤيتك وأنت ترحلين وأنت تذوبين وأنت تتلاشين. بعدد حبات الياسمين أحببتك» هذا العبق الشجى أسكرنى وتمنيت لو فقدت عقلى.

■■■


زنقة الياسمين
5
٦+٥+٤

***

بعد أن انتهوا من تناول طعام العشاء، لم يغادروا المائدة. واحدة أشعلت سيجارة، والأخرى جلست تعبث بفتات الخبز على المفرش الأنيق، أما الأخيرة فانشغلت بملء فناجين الشاى.

بعد أن أخذت زينب نفسا عميقا من سيجارتها قالت لأمها:

ـ تسلم يديك.. إن طعامك له مذاق خاص لن ننساه طيلة حياتنا مهما بعدت بيننا الأيام.

ردت الأم وهى تقدم لإبنتيها فناجين الشاى، وقد علت ابتسامة الرضا شفتيها:

ـ بالهناء والشفاء، فهذا الطعم الحلو لأننا اجتمعنا معا من جديد. ها نحن أولاً نجلس على مائدة واحدة ونتقاسم طعاما واحدا.

قالت زينب:

ـ نعم.. أنت على حق. فعندما أكون فى بيتى فى بلاد الغربة، لا أحمل نفسى مشقة التفنن فى عمل أصناف الطعام. فالكل مشغول فى عمله، المواعيد تتعارض وزوجى راض بأى شىء، يعشق الطعام المحبوس داخل

العلب المحفوظة. الأولاد كبروا وتناقضت أفكارهم، فكان من الطبيعى أن يتمردوا على الطعام داخل البيت. أما أنا فلمن أتحمل مشقة الوقوف داخل المطبخ؟ ولمن أعد الطعام؟ لذا أتناول بقايا ما أجده وأنا فى سباق مع الزمن لأجرى إلى العمل.

بعد أن انتهت فاطمة من العبث بفتات الخبز، قررت البوح عما يجول فى خاطرها فقالت:

ـ لهذا السبب مازلت أحلم بالتخلص من مسئولياتى حتى أعيش بمفردى.

أسرعت الشقيقة الكبرى بالرد كأنها التقطت طرف خيط حاولت الإمساك به من قبل، لكنه سريعا ما كان ينفلت من بين أصابعها. فقالت وقد حمل صوتها نبرة التحدى:

ـ تصورى أنك تعيشين بمفردك، بلا مسئوليات، فما الذى تفعلين؟ ما الذى سوف يتغير؟

أحست فاطمة أن أمامها فرصة عليها ألا تضيعها، لتعيش مجرد لحظات ولو فى الخيال. فقالت على الفور:

ـ أفعل ما يحلو لى دون التزام أو ارتباط بأحد. أسمع الموسيقى.. أدور أنحاء الكون مثل الفراشة.. أتناول الطعام عندما أشعر برغبة لذلك.. أو أستسلم لنوم لا كابوس فيه.. المهم ألا أشعر أن هناك من ينتظرنى أو أن هناك سوطا.. دائماً يلاحقنى.

عادت الأخت الكبرى تسأل بنفس التحدى:

ـ ثم ماذا تفعلين فى اليوم التالى؟

ردت:

ـ تقصدين أن الحرية سوف تصيبنى بالملل لكننى أقول لك إن كل يوم جديد سوف يأتى لى بإحساس جديد.. ورغبات جديدة متنوعة. سأترك نفسى للحظة نفسها، فأكون مثل ورقة الشجر التى تتلقفها الريح، لن أقاوم نفسى، سأتركها على سجيتها. فما أرهقنى عبر السنين إلا المقاومة والتمرد. أتدركين ماذا قال لى الطبيب أخيرا عندما ذهبت إليه شاكية؟ قال: «سيدتى.. لا تجورين على نفسك»..

رمتها زينب بنظرات فاحصة، لكنها أكملت حديثها بعد أن تجاهلت تلك النظرات بكل معانيها الواضحة والغامضة أيضا:

ـ فى أحد الأيام، أى منذ سنوات استبد بى الغضب وقلة الحيلة إلى درجة أننى حطمت آنية المطبخ دون أن أدرى.. والغريب أننى كنت استمتع بذلك. فالإنسان يتوهم أحيانا أنه يستطيع أن يقضى على تلك الأشياء التى تفرض عليه، هذا التسلط الذى أتنفسه يشعرنى بالاختناق.

قبل ان تسترسل قاطعتها زينب قائلة:

ـ أنت حالمة، هذا ما تتصورينه. لكن الحياة واقع آخر، فعندما نتصور مثلا أننا انتهينا من تربية الأولاد، بمعنى أن أصبح لهم كيان مستقل وبيت

مستقل. نوهم أنفسنا بأننا قد تحررنا من القيود، لكن الواقع يثبت أن هؤلاء الأولاد فى حاجة إلى المزيد من الرعاية، فى حاجة دائمة إلى الحوار. ثم يجىء وقت الحساب المستتر أو العلنى، ويأتى السؤال التقليدى، ماذا قدمتم لنا؟ وتدور المقارنات بين باقى الإخوة..

قاطعتها فاطمة فجأة كأنها التقطت طرف خيط، فأبعدت فنجان الشاى عن شفتيها. قالت:

ـ أنا إذن على حق، فهذا جيل ملىء بالجحود، جيل نهم إلى درجة أنه لا يعرف الاستمتاع بما بين يديه. والذى بين يديه كثير كنا نحن نفتقد إلى القليل منه..

بعد أن شردت قليلا مع أطياف الذكريات.. استطردت فى القول:

ـ هل تتصورين مثلا أننى للآن وبعد سنوات العمل الطويلة لا أستطيع أن أعول نفسى؟ فأى مجتمع هذا الذى يقيد الفرد حتى لا يستقل ماديا؟ و كيف تجىء الحرية؟

قالت زينب لأختها الصغرى:

ـ ما رأيك لو قضيت الليلة معنا اليوم؟ نسهر مع أمنا حتى الفجر، نغوص فى الذكريات.. فمنذ فترة طويلة لم يجتمع الشمل.

فرحت الأم بهذا الاقتراح ولمعت عيناها، أخيرا يمكن لها أن تسعد وتظفر بابنتيها ولو لليلة واحدة، هى التى تستحق الكثير.. الكثير..

نهضت زينب على الفور دون ان تنتظر إجابة، أمسكت بسماعة التليفون وطلبت منزل أختها وقالت للابن الصغير:

ـ يا محمد.. والدتك سوف تقضى الليلة معنا.. فما رأيك؟ أرجو ألا يغضبك أو يحزنك هذا.

رد الصبى وهو يحاول أن يخفى تردده:

ـ نعم.. نعم كما تريدون..

لم تمر إلا لحظات و كانت فاطمة تنطلق مثل الريح، تجتاز الشارع الطويل وسط ظلمة الليل. وما أن دقت جرس الباب، حتى كان محمد يطل عليها متهللا بالفرحة لمجرد أن لمح وجهها. فقال على الفور:

ـ ها أنت قد جئت.. كنت على وشك أن أت إليك.. فقد جهزت لك ملابس النوم التى ربما تكونين فى حاجة إليها.

نظرت إليه فاطمة وقد حملتها أنشودة الحب الأسطورى فقالت:

ـ أحقا كنت أت لتحضر لى ملابس النوم؟

شعرت فاطمة بالسعادة العارمة تجتاح بدنها كله. من أجل هذا الاحتياج اللاشعورى الكامن داخل النفس تتحرك الكائنات.. من أجل هذا الدفء السحرى يضىء الكون.. ربتت كتف وليدها ثم احتضنته إلى صدرها.. بعد أن أغلقت باب الشقة خلفها.

■■■




زنقة الياسمين
6
لا.. لا تمت

***

«لا أريد أن تمت».. صرخة عالية دوت وسط الفضاء الواسع، فوق تلك الربوة الشاهقة كنا نلتقى. داخل أنقاض هذا الجامع القديم كانت لنا خطوات. من فوق هذا الجبل العالى كنا نطل على المدينة الكبيرة القابعة تحت أقدامنا وقد لفها الدخان الأسود الخانق.

وسط غابة الأشجار سرنا ساعات طويلة، لا يتوقف عن الكلام، ولا أمل من الإنصات لحديثه. يشير بأصبعه.. هناك بعيدا جوامع تاريخية عتيقة.. هناك حضارة مازالت تتحدث عن نفسها.. لكن هناك أيضا فقراء يزاملون الموتى فى مثواهم وهناك.. وهناك..

يدور رأسى الصغير، ويدق قلبى الوليد لعبارات ومعان وكلمات لم أسمعها من قبل. الظلم، الفساد، العدالة، الإنسانية. آهات خرجت من بين شفتيه ليدق له قلبى فى لحظة فريدة.

اقترب منى، أخذ يتحسس وجهى البرىء، علامات الدهشة التى علت ملامحى نطقت له بالكثير. لقد تخرجت توا من الجامعة، لم أعرف إلا كتب الدراسة ولم يتسع وقتى إلا لمدرجات العلم. عشت داخل أسوار قلعة

عاتية، أتنفس بحساب، أتحدث طبقا لمقاييس وقواميس مدروسة.

على شاطىء هذا النهر، أمسك بيدى لأول مرة، فانسابت إلى شفتيه يقبلنى برقة. وبكلمات معدودة همس لى:

ـ أنت إنسانة مليئة بالطيبة والحب.

على البساط الأخضر، جلسنا جنبا إلى جنب نرقب لحظة الغروب الخلابة. عندما مالت الشمس لتذوب وسط النهر، مال رأسى ليرتاح على صدره الدافىء الحانى. مسح على شعرى وعاد يواصل اللحن الذى لا يكف أبدا عن عزفه وهو يحدق فى الأفق البعيد:

ـ لابد أن يتغير العالم فى يوم من الأيام..

هذا الأمل الذى بداخله لا يموت. هذه النار المشتعلة الموقدة فى صوته مصرة على تخليص العالم من ألوان العذاب.

انتفض كيانى متسائلاً:

ـ العذاب؟! هل أنت تعرفه؟! وقد خيل لى أن كل ما حولك يوحى بالرفاهية والنعيم.

ضغط على يدى بشدة وقد تبدلت ملامح وجهه. وقال بمرارة:

ـ فى طفولتى وصباى، رأيت الأجساد تقع صرعى أمام طلقات الرصاص الغادرة..

هانت عليه حياته عندما قرر ألا يقبل الظلم وأن يقاتل الذين يصنعونه. عاهد نفسه على الصمود ولم يكف عن الكلام.

داخل الزنزانة الرطبة، تكوم على الأرض وسط الظلام، وسط السواد أخذ يردد بكل ارادته:

ـ لابد أن يتغير العالم.. لابد!

بين الحوارى والأزقة مشينا معا وقد قبض على يدى التى تريد أن تفلت منه. بعد أن أحس أننى أقدم خطوة وأؤخر أخرى أحكم قبضته على يدى، فأحسست بالاختناق. هؤلاء الأطفال يأكلون القمامة ولا يستر أجسادهم إلا وهم من المدنية والرحمة. صرخت فيه وقد خيل لى أننى أسير على كوكب غير الكوكب. قلت:

ـ ما هذا الذى تفعله بى؟.

بقسوة لم أعهدها فى صوته من قبل قال:

ـ انظرى.. هذا هو الوجه الحقيقى للعالم.. وليس الصورة الأخرى المزيفة.. إنه الظلم!

على الفراش الواسع عندما تحسست يداى جسده الذى ضممته إلى صدرى بشدة. ترامت إلى مسامعى أصداء السياط.. تنهال على البدن الآدمى بوحشية وجنون. حاولت يداى مسح من على جسده أى أثر وهمى تخيلته

قد يكون ترك معالمه فى يوم من الأيام. نظرت إليه لكن آثار الجروح كانت قد تركت مكانها من الجسد لتستقر فى النفس والروح.

فى إحدى الليالى المقمرة، نظر إلى بحب بالغ وقال:

ـ نتزوج..

ترددت، فتلعثمت الكلمات بين شفتى فأسرع بالقول:

ـ أعرف أن قضيتى خاسرة.. أعرف ايضا أنه ليس لدى ما أخسره من جديد.. أما أنت.. أنت كل ما تبقى لى من حقيقة.. أعرف أنك تملكين حياة جميلة.. وارتباطك بى سيكون أكبر مخاطرة لك.. أفهم معنى ترددك.. لذلك لن ألح عليك.. أنت مكسب لى.. أما أنا فربما كنت خسارة مؤكدة!

لم يتسع الوقت للإلحاح واستسلم الجسد للضعف.. للوهن.. للعقاقير.. للهذيان.. حرمت على نفسى الاقتراب خوفا منى عليه وخوفا منه على نفسه. هذا الجسد الذى لم أعد أشعر بحرارة نبضه فوق خلجاتى، كان يشعر بما يدور حوله. لكن اللسان تلعثم، سكت عن الكلام. ولم يتغير العالم، بل بات الحضيض وشيكا!!

فى يوم ما التقيت به مصادفة عند مدخل ذلك المبنى العاتى، بدت دهشتى واضحة وتملكنى الشك. أحسست بالحرج والخجل، ترفقت بنفسى إنه الحب الذى مازال يعبث بقلبى. هذا القدر العابث، اللاهث تلقفنا من جديد فشعرت بنظراته سهاما يوجهها إلى كأننى آخر ما كان يتمنى أن يراه! لم

أدرك في تلك اللحظة الفريدة الأخيرة أنني كنت دائما ذلك الجرح الذي ظل ينزف أكثر من عشرين عاما. اقتلعته الغمامة السوداء العاصفة التي لا ترحم، كما تقتلع الشجرة من جذورها. وعرفت أنني لن آراه مرة أخرى.. كل ما فيه كان يؤكد بأنه لن يكون..

وفهمت لماذا كان شعاع الغضب والحنق يطل من نظراته، كان يعرف أنه على رحيل.

ازدادت حيرتي يوما بعد يوم، الآن أشعر به أكثر من ذي قبل، بعد أن غدا طائرا جميلا يحلق حولي. على المقعد الخالي آراه بجانبي.. يبتسم لي.. يلاطفني.. يداعبني كعهده بي.. وأسمع صوته يردد، يهمس لي:

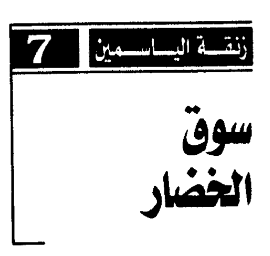
ـ ها أنذا أعود إليك.. وقد تحررت من قيودي وأغلالي.. تحررت من الثوب البشري.. من عبودية الإنسان للإنسان.. تحررت من كل شيء إلا منك.. لقد تغير العالم.. عالمي أنا..!

أتمنى أن يتجسد لي في صورة، أن أراه.. أن ألمسه.. حتى أطارد الإحساس بأنني أهذي.. في الفضاء أمد له يدي.. أتحسس ملامحه.. عيناه الزرقاوان مازالتا تومضان بالدموع والتوق. وتلفح أنفاسه وجهي، من جديد يعزف لحنه.. ويجيئني صوته واثقا مؤكدا:

ـ لابد أن يتغير العالم.. لابد أن يتغير العالم.. لابد..

■ ■ ■




زنقة الياسمين
7
سوق
الخضار

❊❊❊

جلست الطبيبة المعروفة فى عيادتها بعد أن خلت من المرضى، ظلت سارحة شاردة تفكر فيما سمعته بالأمس بالمصادفة من حوار دار بين مرضتين بالمستشفى. قالت الأولى:

ـ كم أتمنى أن تنتهى النبطشية سريعا. أريد أن أعود للبيت حتى أعد الطعام لوالد العيال، سوف يحضر اليوم.

ردت الثانية وهى شديدة السمرة، لكنها جذابة:

ـ أما أنا فوالد ابنى الوحيد يعمل بالسعودية وليس أمامنا فرصة حتى ننجب طفلا ثانيا.

قالت الأولى على الفور:

ـ احمدى ربنا، أتريدين الإنجاب مرة أخرى، بعد كل هذا الغلاء الذى نعيش فيه، من أين سوف تطعمينهم؟ تتصورى أن أنا مثلا لدى ثلاث بنات، ظللت أنجب حتى آتى لزوجى بالولد ولم يرد الله. وها أنا لا أعرف ما الذى تخبئه لنا الأيام. تتصورى كمان أن كيلو الطماطم فى الحى الشعبى الذى

نسكن فيه قد وصلت إلى خمسة وعشرين قرشا. هذا بعد أن كان بخمسة قروش منذ عدة أيام.

هنا اعتدلت الطبيبة فى جلستها وتعمدت متابعة هذا الحديث الذى دار بين الممرضتين من خلف البارفان الأبيض الناصع.

استطردت الأولى فى القول:

ـ بالأمس ذهبت إلى شادر السمك واشتريت كومة من السمك بحوالى عشرين جنيها.. تتصورى إنها طلعت خمسة كيلو بالتمام.

قالت الطبيبة لنفسها «يا بلاش.. وأنا أشترى كيلو السمك بعشرين والجمبرى بستين جنيها والطماطم بجنيه ونصف. وكل ذلك لأننى أسكن فى حى راق».

لا.. لم يعد للرقى معنى، إنه الاستغلال المسموم. لذلك أصبح الخضرى يركب السيارة الفارهة، وكذلك البقال وصاحب السوبر ماركت. حتى الطبيبة لا تستطيع أن تصلح سيارتها التى مر عليها دهر من الزمان، كل ذلك لأنها تدفع ثمن السكن فى حى راق.

أفاقت الطبيبة من شرودها بعد أن دخل عم «على» ينبهها أن الساعة أصبحت الحادية عشرة مساء. فهو يريد أن ينظف المكان ويغلق خلفه باب العيادة.

بينما أخذت تقود سيارتها القديمة، أعادت شريط حياتها إلى الوراء، كيف أنها لا تملك حتى حسابا فى البنك بعد كل سنوات العمل الطوال؟ هذا

مع أنها طبيبة ناجحة ومعروفة. و كيف أنها تفكر مائة مرة قبل أن تغير سيارتها القديمة؟ كيف أنها لا تستطيع أن تجدد حمام بيتها؟ إنها لا تعرف كيف تنساب منها الأيام شهرا بعد شهر؟ لا تعرف أين تذهب الفلوس؟

فى أحد الأيام بدلا من أن تذهب إلى النادى لممارسة رياضة التنس التى تحاول منذ سنوات المواظبة عليها، قررت أن تقتحم سوق الخضار. ذلك السوق البلدى القابع على أطراف الحى الراقى الذى تسكن فيه.

وسط الوحل والطين غاصت بحذائها الأنيق تجوب أنحاء سوق الخضار الواسع الكبير. هذا السوق عرضت فيه كل أنواع الخضار فى فوضى لكن بتلقائية وبدائية شديدة، لا نظام ولا نظافة.

أخذت تتجول وسط نظرات الدهشة التى بدت على الباعة من الجنسين. ما الذى آتى بهذه السيدة الأنيقة هنا؟ وماذا جاءت تفعل؟ لابد أنهم اعتادوا على نوعية معينة من البشر.. فماذا يظنون؟ أهى تختلف عن بقية الكائنات؟ كل ما فى الأمر أنها لا تعرف الفوضى أو القبح. بقليل من اللمسات تعرف مواطن الجمال فى الأشياء، معادلة تبدو صعبة لغالبية الناس.

تهادت وسط السوق تتأمل أسعار الفاكهة والخضار، السعر أقل بأضعاف مما اعتادت عليه. شعرت إلى أى مدى كانت غبية، نعم لهذا السبب تنساب الفلوس من بين يديها ولا تعرف إلى أين تذهب؟ لكنها عرفت الآن.. فهمت وأدركت أنها كانت تسير فى الطريق الخطأ

أفاقت فجأة على صوت نسائى منغم يتحدث إليها من بعيد. التفتت إلى الوراء، فإذا بها أمام سيدتين محجبتين فى ملابس السواد. جلستا على عربة يد وسط أكوام من اللون الأخضر هى خليط من الخضار الطازج المبلل بالماء.

قالت لها الشابة صاحبة الوجه الدائرى الناصع البياض بابتسامة عريضة:

ـ أنت زى العروسة.. والله زى العروسة.

ردت لها الطبيبة ابتسامتها دون أن تدرك مغزى كلامها، لكنها قالت على الفور:

ـ أنت اللى زى العروسة..

بالفعل، كانت المرأة الشعبية شديدة الحسن، وجهها يشع منه النور. قالت للطبيبة:

ـ العروسة اللى فى البلوزة من الظهر شكلها جميل جدا.

أدركت الطبيبة ما الذى كانت تعنيه المرأة والتفتت إلى ظهرها، نعم البلوزة التى ترتديها عبارة عن لوحة تجريدية لشكل عروسة للفنان الكبير بيكاسو.

ابتسمت لها الطبيبة مرة أخرى وقالت:

ـ أنت تقصدين هذه العروسة؟ لماذا إذن ترتدين هذه الملابس السوداء.. فأنت ذواقة؟

بسرعة كانت إجابة المرأة الشابة عملية، فرفعت أطراف ثوبها الأسود لتريها ما الذى ترتديه تحت هذه الملابس القاتمة. فإذا بأقمشة ناعمة جميلة مزركشة الألوان والأشكال.

قالت الطبيبة لنفسها: «نعم.. أنت تختفين وراء هذه الملابس».

عادت الطبيبة إلى بيتها، لا تستطيع أن تبعد عن خيالها وجه المرأة الشعبية السمح. فى لحظة ما تلاشت الفوارق ودار حديث أنثوى بين المرأتين. لا فرق بين ثقافة ولا تعليم، ولا طبقة دون طبقة.

بعد عدة أيام أخرى لم تستطع الطبيبة أن تمنع نفسها من الذهاب إلى سوق الخضار. قادتها قدماها إلى هناك، سحر غريب يجذبها إلى هذا المكان إلى هذه الفوضى.

جاءها صوت الشابة يقول لها من بعيد:

ـ أهلا بك.. أين كنت منذ عدة أيام؟

اقتربت منها الطبيبة بحذر وقالت لها:

ـ كيف حالك أتمنى أن تكونين بخير..

قالت لها الشابة:

ـ اتفضلى اشربى معنا الشاى.

ترددت الطبيبة قليلا، لكن أسرعت الشابة بالنداء على غلام صغير

ليحضر كوبين من الشاى.

بالفعل فى لحظة وجدت الطبيبة نفسها قد جلست إلى جوار الشابة بعد أن فرشت لها شوالا من الخيش الجاف، لتجد نفسها وسط الخضار. لم تشعر بالراحة فى جلستها بسبب ملابسها الضيقة التى تساير بها الموضة، كما أنها لم تكن تعرف فن الجلوس على الأرض.

تحدثت الشابة بلا تحفظ أو عقد، غير مبالية لا ترى أبدا للفوارق وجودا. ما المعنى أن تكون المرأة التى تجلس بجوارها على الأرض طبيبة أو مهندسة؟ لا يهم!

لم تجرؤ الطبيبة على أن تحكى لزوجها أو أولادها.. إن أحب أوقاتها هى تلك الساعة التى تخطفها من الزمن وتقضيها بجانب صدبقتها الجديدة فى سوق الخضار.

لم تشعر الطبيبة بالراحة فى جلستها على الأرض إلا بعد أن أرتدت ذلك الجلباب الأسود الطويل الذى أصبحت تحتفظ به فى سيارتها فى مكان خفى. ترتديه عندما تخطو إلى السوق لتجالس الباعة، أحيانا حول أكواب الشاى وأحيانا حول شيشة عجمى وقليل من الدخان!

■■■

زنقـــة اليـــاســـمين 8

قطار الشـــــرق البطيء

***

لا يعرف لها عنوانا.. لا يعرف لها لغة، لكنه يعرف هاتان العينان وذلك الأنف الشامخ.. هذا اللون الأسمر اللامع أضاء وجهها.

بمجرد أن تحرك القطار من رصيف المحطة.. سار مع زميله يتفقدان حالة الأمن من أجل سلامة الركاب المسافرين بعيدا.. بعيدا.. ملابسه الرسمية بلونها الصارم الجاد لم تخف سنوات عمره الشابة. بعد أن مر أمامها، أسرع بالالتفات إلى الوراء ليمعن النظر فى وجهها ويتأمله.. غريبة هى لا تشبه الآخرين. تحدث إلى زميله بصوت خافت يشبه الهمس، فالتفت إليها الاثنان مرة أخرى.. علت شفتيها ابتسامة خفيفة، حاولت أن تداريها بخجل.

بعد أن مر أمامها عدة مرات، جلس بالقرب منها، نظر إليها طويلا.. طويلا.. غاص فى عينيها. لكن ماذا يقول واللسان عاجز عن الكلام؟!.

بدت الظلمة حالكة خارج القطار الذى أخذ يسير ويتلوى بين السهول والهضاب والجبال الشاهقة التى أحاطت بالمكان. أحس بحركة القطار بطيئة، هذه الساعات الطوال تمر عليه ثقيلة موحشة.

استقرت عيناه تتحسسان وجهها الحلو، ابتسامتها العذبة جذبته إليها. هذا الوجه آت من الشرق.. هذا الشعر الأسود الطويل المنساب هو ليله الموحش.

جلس بالقرب منها يتتبع حركتها، يتحسس قلقها، عيناه تتأملانها بلهيب نظراته الواعدة.. لو تعرف ماذا فعلت به؟ حاولت أن تدارى وجهها.. أن تخفى انفعالها بعيدا عن ذلك الدفء المتدفق المنساب إليها.

أحس بالقلق يدب فى أوصاله.. كيف يتحدث إليها؟ كيف يكلمها وهو لا يعرف لها لغة؟

وسط الليل أخذ يروح ويجىء.. فلمحها مرة أخرى عند الممر الضيق واقفة سارحة. اقترب منها ببطء.. مد لها يده.. فانسابت إليه يدها.. نطق باسمه.. ونطقت باسمها. جذبها ناحيته برفق.. سارت إليه وعيناها لا تكفان عن البوح.. عن القول.. نسيا أنهما لا يعرفان اللغة.. لا يعرفان الكلام. سكت اللسان.. تحرك القلب.. خفقات سريعة متلاحقة.. لا تعرف لغته ولا يعرف لغتها.. أخذ ينظر إليها وهو يردد اسمها.

بدت عيناه كأنها ذراعان تمتدان إليها.. تحتضناها بحب.. بشوق بعد طول انتظار.. صدره الحانى نادى باسمها مرة أخرى كأنه يلوذ بها وسط الجبال العالية «ابقى ولا تذهبى». تحسس وجهها الذى علته الحمرة خجلا وخوفا.. يريد أن يقول يريد أن ينطق.. لكنها لن تفهم لغته.. فابتسمت.

أطلت إليه بعيناها.. أحب جمالها الساحر.. أشار إلى قلبه.. فهمت ما يدور فى نفسه.. لم يتحمل عبير وعبق نظراتها المشتاقة. مد يده.. أسدل رموشها على عينيها.. ثم قبلها على شفتيها برفق.. قبلة قصيرة خاطفة وواعدة.

أحس بأشياء تتزاحم بداخله.. مشاعر لا يفهمها لكنها جميلة.. لا يريد أن تغيب عنه.. وتمنى لهذا القطار البطىء ألا يتوقف أبدا.

أفاق من حلمه.. نظر إليها مرة أخرى بعينيه العسليتان.. كلماته العاجزة لا تعرف ماذا تقول؟ فانفلتت العبارات لا تنطق إلا باسمها.. أخذ يردده بصعوبة، بلوعة، بحب.

ابتسمت بارتباك.. ثم مالت برأسها على كتفه.. احتضن الرأس الصغير بحنان.. أخذ يمسح على ليل شعرها الطويل.. ثم جذبها إليه.. أخذ يدها برفق وسارا معا عبر الممر الضيق.

وسط ضجيج القطار ودوى عجلاته الصاخبة، أغلق باب القاطرة خلفهما.. بدت له سرعة القطار البطىء أكبر من أى وقت مضى.. قطار الشرق دائما بطىء وطويل.

اليوم تغيرت الصورة أمامه.. ارتفع نبض حياته.. لحظات عمره تمر خاطفة.. سريعا ما تنتهى.. بمجرد أن يتوقف قطار الشرق البطىء.

مال عليها بجسده.. أخذ يضمها أكثر فأكثر.. اعتصر شفتيه بين شفتيها.

تمناها فى لحظة سهو من الدهر من الزمان من السفر والترحال. انساب بداخلها.. ذاب حتى تلاشى فى هواها.. نظر إليها بعينيه الدامعتين.. يريد أن يقول لكنه لا يعرف لغتها.

أغرق وجهها وجسدها بقبلات مجنونة.. محمومة تريد أن تتغلب على عجز لسانه. لا يريد أن يتركها.. لا يريدها أن تضيع أن تتلاشى.. لا يريد لقطار الشرق البطىء أن يتوقف.

انتزعتها الفرملة من بين ذراعيه بعنف.. وقسوة.. توقف قطار الشرق البطىء فجأة.. فإذا بها على بعد خطوات.

أفاق إلى نفسه وأخذ يردد اسمها.. ردده كثيرا.. مرارا.. مرارا حتى لمحها هناك.. تضيع وسط الزحام على رصيف المحطة.

رفعت يدها من بعيد تمسح دمعة صغيرة.. لمعت مثلها دمعة سالت على خدى غريب.

■■■


9
زنقـة اليـاسـمين
بطاقة
عزاء

***

أخذ يقلب الورقة الصغيرة بين يديه.. يقرؤها.. ثم يعيد قراءتها مرة أخرى. تحسس الورقة بأصابعه.. علت وجهه ابتسامة ساخرة.. لكنها حانية.. أخذ يردد لنفسه: «هكذا.. هذا كل ما أصبح بيننا.. بعد كل هذا الحب الكبير لم يبق لى سوى قطعة الورق الصغيرة».

بدأ يشعر بعدها باليتم.. السنوات الطوال حالت بينهما.. لا يعرف سببا لذلك.. أيتظاهر بأنه لا يعرف؟

جاءت لحظة قررت فيها الصمت والسكوت.. سألها مرارا «ماذا بك؟ أكففت عن حبى؟ تكلمى!» لكنها أغلقت فمها هذه المرة، لا تريد أن تبوح.. ولا أن تشكو.

فى لحظة محددة وقفت وعاهدت السماء.. ستغلق شفتيها.. ستكف عن الشكوى والكلام، ومثل الصقيع انسابت سنوات الصمت الطوال.

ركب القطار متوجها إلى الشاطىء حيث المكان الذى كانا يلتقيان فيه.. أحس بالحنين يجتاح خلاياه، كأن هذا الحب كان بالأمس.. شعر بالدفء يعاوده من جديد. قال لنفسه «ماذا حدث أكنت أضحك على نفسى كل هذه

السنوات؟! سنوات البعاد.. أمازلت أحبها؟! صخب الحياة الجذاب لم يعد إلا وهم وخداع».

لا.. لم ينس.. علت المرارة وجهه عندما وقع بصره فجأة عبر ممر القطار السريع، على المقعد الأمامى فى الصف الخامس على اليمين. بدت له من الخلف خصلة شعر أسود فاحم يعرفها تماما.. حتى لفتة الرأس بدت طبق الأصل.

دق قلبه الثقيل، أيمكن للقدر أن يتصالح معه ويعيدها إليه من جديد؟! هكذا فى لحظة صدفة كما يحدث فى القصص والروايات.

كانت تمسك بالجريدة تتصفحها، حتى هذه اليد تشبهها تماما.. لكنه فى لحظة أحس أن يدها كانت أكثر رقة، يد طالما مسحت العرق من على جبهته.. أصابع عرفت طريقها إلى وجنتيه.. تتحسس حبات الدموع التى خانته أحيانا فى لحظات الوجد والفراق.

وسط ضلوعه، أخذ قلبه يدق بعنف.. يتمنى أن تلتفت إلى الوراء حتى يتحقق أخيرا من وجهها ويتخلص من عذاب القلق والانتظار. فى لحظة ما كان على يقين أنها هى.. إلى درجة أنه أعد الحوار الذى سوف يقوله لها.. كلمات أولى بعد سنوات البعد.. سيقول «ماذا تفعلين هنا؟» وسترد بنفس الثقة «وأنت ماذا تفعل هنا؟».

هكذا كانت دائما قوية صلبة عندما يتطلب الأمر.. ناعمة حانية محلقة

تذوب معه بلا حدود وقت القرب.. عاصفة هوجاء وقت الغضب.. قادرة على إقتلاع أشجار من جذورها.

وسط لحظات ملبدة بالغيوم تضرعت إلى السماء.. فكان العهد ألا تفتح فمها.. ألا تعاود الكلام.. واختفت فباتت الطيف الذى يؤرق نومه ويعذبه.

التفت الرأس أكثر فأكثر.. تبين جانبا كبيرا من الوجه.. وتنفس الصعداء. لا ليست هي.. كاد أن يحمد الله أنها لم تكن صورته المنشودة. فقد عشق صمتها.. أحبه فى صورة جديدة.. استعذب جفاءها.. تلذذ بذلك العذاب.. هذا الحلم سيظل ملازما له كفتى مراهق.

تحسس الورقة الصغيرة فى جيبه.. تحسس بطاقة العزاء.. عزاءها لعذابه وسهره.. هذا كل ما تبقى له وبقى منها!

■■■



الصرخة

***

رأيتك حبى تجرى بجانب القطار الذى أخذنى بعيدا.. بعيدا.. رأيتك فارسى، حبيبى. حبيبى ألحق بى، لا تتركنى بعيدا.. بعيدا. وسط هذه الغابات رأيتك فى انتظارى تموت شوقا لاحتوائى. غرباء نحن وسط عالم شديد الغربة.. اقرأ بداخلى كلماتك.. اتحسسك سطرا.. سطرا.. أجوب معك وديانا وسهولا.. ويدور رأسى.. أسمعك شاكيا:

ـ لقد جعلت منى ذلك المجنون.. ها أنا ذا أصبحت أهذى بين ذراعيك.. أصرخ فيك الشفقة.. ارحمينى.

ـ عذرا عيناك جذبتنى.. قيدتنى.. ها أنا ذا صريعة أشكوك عذابى.

استسلمت للنوم بجانبى وغبت عن الوعى.. فلم أتمالك نفسى.. شعرت بك وليدى. تحسست جسدك الهادىء برفق حتى لا تفيق من السبات فتجد الواقع المتمرد.

عندما فتحت عيناك نظرت إلى وجهى باسما وقلت:

ـ لقد سرقت منى ساعة من عمرى.. أتنفس دقات قلبك وأنت إلى جانبى، بل قطعة منى.

فوق الجبل الأبيض العالى كوخ بنيناه معا، لنبقى فيه ما تبقى من العمر، تضيع هويتى وتضيع هويتك. أفتح عيناى جيدا.. أملؤها من ملامحك حتى لا تغيب عنى فى أيام القحط والفراق. فأسترجع صوتك كما يحلو لى وسط الناس، لا خائفة ولا أعبأ للقلوب الحجر. بداخلى قصة لم تكتمل صفحاتها بعد.. سنوات وسنوات. يا إلهى كم من القصص عامر بها الوجود.. ارتفعنا عاليا لنحلق معا فوق الأرض. غيرتنى الأيام وقسوة البعد.. سألت نفسى متى يا ترى تبدأ حياتى؟! فقد ضقت من الانتظار ومن ضربات القلب وحزن خلجات النفس. حبيبى أسمع صوتك يتنفس فى أذنى، يهمس بالأمل. وتدغدغ عنقى بشفتيك لعلى.. لعلى أذوب فيك بلا رجعة. أشد نفسى من أعماقى أحاول أن أتعلق بك لنجدتى مما سار عليه حالى، لقاؤنا فراق.. ابتلعت دموعى فقلت لى:

ـ قلبى يا حياتى.. أنت زهرة عمرى.. أعدت إلى روحى.. فذبت فى الحياة من جديد.

صراخ قلبه لا صوت له.. بل أنات صدرت لتمزق قلبى. هذه القرى من حولى تأخذنى منك بعيدا.. بعيدا.. لتزداد ثورتى وغضبى.

صرخة مروعة اندلعت وسط ضلوعى لتخرج مثل النيران المشتعلة.. فهذا هو القدر.. خدعة الأيام ووهم العمر.

■ ■ ■


زنقة الياسمين 11
الحب..
ثم الحب
***



توقفت السيارة أمام محل السوبر ماركت، طلبت الجدة من حفيدتها الانتظار قليلا حتى تذهب لتشترى بعض لوازم البيت. خلف عجلة القيادة انتهزت الحفيدة الفرصة لتشعل سيجارة وتناول أمها واحدة فى المقعد الخلفى.

هذا الميدان الشهير الذى يحتل قلب الحى الراقى بدا مزدحما كعادته.. وفى هذه الساعة من الليل لم تتوقف حركة المارة. المحلات الشعبية اختلطت بالمحلات الراقية التى تعرض أفخم وأغلى الملابس المحلية والمستوردة. حتى المقاهى الشعبية التى افترشت الأرصفة أكدت نفسها وسط الرواد من الأجانب وأولاد البلد.

ساد الصمت داخل السيارة، اكتفت المرأتان بشد نفس السيجارة، فبداخل كل منهما عالم يلف ويدور. الأحاسيس، العواطف والمشاعر تشابكت. فلم يعد أحد فى زمننا هذا يقوى على التعبير السليم، ولم تعد للأشياء مسمياتها الحقيقية. فقد اختلفت المفاهيم واتسعت الهوة بين الناس، فتحول كل فرد ليصبح من جديد جزيرة منعزلة عن الآخر. كل يريد

الخلاص، كل يريد الهروب من ذلك الواقع الأليم، كل ينشد النهاية أملا فى بداية جديدة.

فجأة قطعت الشابة الصغيرة ذلك الصمت وقالت بصوت ساخر:

ـ لا.. الأفضل لك أن تضربها..

نظرت الأم حيث تنظر ابنتها، فلمحت على الرصيف المجاور رجل وامرأة يتحدثان بحدة، الرجل ممسكا بذراع المرأة ويرجها بشدة.

قالت الأم بصوت مرير:

ـ هكذا أصبح الناس.. لا أحد يريد أن يفهم الآخر.

بينما انهمكت الأم فى جذب نفس طويل من سيجارتها، لتخرج وسط الدخان المتزاحم أمامها سلسلة من الآهات المكتومة. هذا القلب المثقل لم يجد مؤخرا من يخفف عنه، فإذا بابنتها تقول وهى تضحك فى دهشة:

ـ انظرى إنهما يتعانقان الآن..

وسط الميـدان الواسع المزدحم بالناس بدأت تتـضح الصـورة، تعلق الجسدان الواحد بالآخر، لا يريدان أن يفترقا وتزاحمت القبلات لا تعبأ بنظرات المارة.

علقت الأم بدهشة قائلة:

ـ ما هذا الذى أراه؟! فى هذه البقعة من الأرض لم يعد أحد يجرؤ على

التعبير عن مشاعره.. وخاصة على الملأ.

نعم، هذا العصر الخرب سمح بكل أشكال وصور العنف، أما الحب فقد انزوى وانكمش وتقلص حتى أضحى عملة نادرة بين الناس.

حاول الرجل التخلص من أحضان المرأة ليلحق بسيارة الاجرة الواقفة في انتظاره.

قالت الابنة بمرارة:

ـ لابد أنه مسافر ليبحث عن عمل.. لقد ضاقت الحياة بالناس جميعا.
ردت الأم مداعبة:

ـ ولماذا لا تقولين إنه ذاهب للقاء امرأة أخرى؟

التفتت الشابة لأمها، نظرت إليها باحتجاج وقالت:

ـ لماذا هذه النظرة المتشائمة؟

جرت المرأة خلف الرجل الذى احتل المقعد الخلفى من السيارة الأجرة. تعلقت بنافذة السيارة وقد سالت دموعها بحورا وانهارا، ملامحها تقول إنها تتوسل إليه أن يبقى. لكن السيارة بدأت تتحرك ببطء وهى مازالت متعلقة بالنافذة تمد له يدها تريد أن تلمس قطعة من جسده ولو للمرة الأخيرة. مع ذلك انطلقت السيارة لتنهار المرأة باكية، واقفة بمفردها على الرصيف وسط عالم لم يحتله أحد سواها.

عادت الجدة إلى السيارة محملة بالمشتروات، أحست بوجوم الحفيدة والابنة.

فقالت مداعبة:

ـ لابد أنكما رأيتما هذه المرأة والرجل.. لقد لمحتهما من داخل المحل. مسكينة أمه كيف ستتحمل فراق ابنها؟

بصوت جاد التفتت الأم لابنتها وسألتها:

ـ ما أخبار عريسك، هل بعث إليك لتلحقى به فى بلاد الغربة؟

ردت الابنة بخبث:

ـ وأنت.. هل مازلت تشكين فى أبى؟

■■■


زنقة الياسمين
12
السوار
الذهبى

❋❋❋

جلست تستعرض شريط حياتها الطويل القصير، أرادت أن تنصت لنفسها لحظة الحساب. ولم لا؟ إنه الحساب قبل الوقوف أمام الميزان.

لم يتملكها إحساس ماسوشى، لكنها لحظة البحث عن الحقيقة بعد تجربة الحياة المليئة بالتوافق أحيانا وبالتناقض أحيانا أخرى. تريد أن تقول هذه المرة، بلا صراخ، فلم تعد الجروح تؤلمها، ولم يعد النزيف يسحب روحها.

ظلت الصورة مرسومة محفورة فى ذاكرتها، لم يستطع الوقوف أمامها طويلا، بخطوات غير ثابتة مترددة اتجه نحو الباب.. ثم اختفى.

بدت ضئيلة وسط المقعد الوثير، اختلطت الصور متزاحمة داخل رأسها الصغير الساذج.

بالأمس هرول كل منهما ناحية الآخر بعد أكثر من عام من الفراق. جاء إليها مفعما بالمشاعر، بالشوق، تعلق بها لا يريدها أن تبتعد عنه خطوة. اخترق الحدود.. لكنها لم تكن تدرك، أو لم يدر بخلدها ما يمكن أن يخبئه لهما القدر.

وسط الفراش الواسع عاشت لحظة التجانس.. أغمض عينيه. فقالت بصوت حان:

ـ أريد أن أرى زرقة البحر فى عينيك..

لكن الموج المتلاطم سحبها إلى ثورته وهياجه المفاجىء. فسألت:

ـ عندما أكون بعيدة عنك.. هل تخوننى؟

نظر إليها، لكن الكلمات لم تخرج من فمه، فأصرت على السؤال رغما عنها. بعد هذه السنوات الطوال من الحب والبعد قد يرغب الإنسان فى النظر إلى الصخرة التى يضع عليها قدميه.

نطق بكلمات معدودة. قال:

ـ وهل أسألك أنا عما تفعلينه وأنت بعيدة عنى؟

بعد أن وصلتها الرسالة تنحت جانبا.. فنهض ليرتدى ثيابه وهو يقول بصوت خافت:

ـ أنت قوية.. وواثقة من نفسك.

ابتلعت الاتهام الواهن الصادر عن رجل يريد أن يتعامل بالتساوى، لكن فى الخفاء دون الإعلان أو الإفصاح أو حتى الكذب. مرة أخرى أدركت لعبة الحياة، فاعتذرت.. لكن بعد فوات الأوان.

عندما فتحت عينيها على دهاليز الرجل فى عالم الخيانة. قالت لنفسها «ليس هناك رجل يستحق الإخلاص.. وإذا خانت المرأة فالرجل مثلها الأعلى».

على صوت انغلاق الباب تملكها الحلم القديم.. عبر الحدود من أجلها، جاء إليها فاتحا ذراعيه، جلسا جنبا إلى جنب يتبادلان القبلات غير عابئين بالنظرات الفضولية.

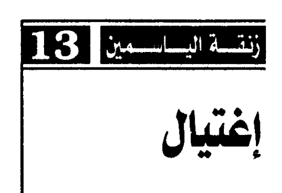
لكن قبل أن يعبر الحدود مرة أخرى عائدا. أخرج من جيبه سوارا ذهبيا ألبسه لها فى معصمها الحبيب. وقال:

- إذا لم نتزوج خلال عام.. ردى إلى السوار.

ثم اختفى.

■■■




زنقة الياسمين 13
إغتيال

***

إلتقيت بها عدة مرات بين الأهلى والأصدقاء، كان من الصعب على ان ابعد عيناى عنها. في يوم مشرق تفتحت فيه الورود وأينعت قررت أن أهمس فى اذنيها:

ـ أريد الزواج منك..

لم تعتريها الدهشة.. ابتسمت فى وداعة وقالت:

ـ موافقة.

لم تطلب منى سوى شرط واحد وافقت عليه دون تردد.. أن يكون لها جناحها الخاص فى بيتى.

إنسابت بيننا الأيام والسنين.. لم تغب خلالها عن عيناى، بل كانت النسمة التى تعطر حياتى. لم تهمل أبدا فى واجباتها الزوجية أو المنزلية، لكن فجأة فى أحد الأيام دخلت على غرفتى الخاصة وقالت:

ـ ماذا بك؟!

نظرت إليها محاولا اخفاء مشاعرى المتصارعة داخل صدرى وقلت:

ـ لا شيء..

قالت:

ـ منذ فترة لم أعد اتعرف عليك.. لكن مالا تعرفه أنت ان عيناك تخونك امامى. فهذا الذى تحاول ان تداريه اصبح شمس ساطعة تنير صفاء السماء.

لم استطع التحكم فى نبرات الغضب التى سيطرت على كيانى، فقلت لها بصوت حاد:

ـ ماذا تريدين؟ أتظنين انك الوحيدة على هذه الأرض التى يمكن لها أن تتألم فأنا ايضا لدى من الهموم ما يكفى.

أخذت نفسا عميقا ثم جلست على المقعد الوثير امامى.. حملقت فى بعينيها الواسعتين بليلهما المظلم بعد أن غاب القمر. وبصوت ناعم قالت:

ـ يا أستاذى.. المشاعر لا تخيف ولماذا الندم؟ نحن فى مرحلة من العمر لا تسمح بالغش والخداع..

قاطعتها دون أن ادرى:

ـ أنت شديدة الحساسية.. مرهفة المشاعر والتكوين.. أنت انسانة مريضة، تعيشين فى أبراج من الأحلام والوهم.

تصورت ان سهامى الدامية سوف تغتالها وتطيح بها من امامى. لكنها

ردت بلباقة وقالت:

ـ هذا لأننى أضعك فى منزلة بالقرب من ذاتي.. فسمحت لنفسى بالشكوى.. بالآنين بين ثنايا صدرك وعبر الفضاء.

انتفض جسدى اشتعالا وحاولت اخماد لهيب النيران بداخلى. قلت:

ـ ماذا تظنين؟! لست طفلك الذى يمكن لك أن تؤنبيه.. تطيحين بأفكارك هكذا وسط السماء.

قالت بثقة:

ـ ألا تريد أن تسمعنى.. كيف؟ وعيناك العسليتين قد اضفتهما إلى أملاكى.

قلت على الفور:

ـ أنت لست صديقتى.

ردت:

ـ عندما تصيبك بعض اشواكى.. فهذا يعنى انك تنفست رحيق ورودى، فرحلت يداك تتحسس اشلائى، كل ما تبقى منى عبر الزمان.

بدلا من محاولاتى لنفضها عن روحى ونفسى.. إذا بها قيد حريرى يدمى معصمى.. قطرات من دمى تناديها وسط اصرارى وعنادى.

قالت على الفور:

ـ ولماذا اكون ناكرة للجميل؟! فأنت تضمنى بين حنايا قلبك التعب المرهف الحسى.

كان حبى لها أكبر من الافصاح، أشد من الغضب، وأقوى من العناد، لكن الكلمات أبت أن تنساب مثل قطرات الندى فى فجر العشاق. وحملق كل منا فى الآخر طويلا فى لغة لا يدركها إلا المحبين التعساء، فتلاشى شبح الابتسامة وسط الغيوم وسط الضباب.

قامت من مكانها تتهادى بخطوات ناعمة، تهم بمغادرة الغرفة.. لكن إذا بها تلتفت إلى وتقول:

ـ يمكن لزواجنا الاستمرار.. لكن لابد أن تسمع صوتى حتى تدركنى بعقلك لينمو ذلك الحب الرفيع.. فأنت اكبر من عمليات الاغتيال.

■ ■ ■

زنقـــة اليـــاســـمين 14

أنشـــودة تقطر.. دماً

***

هكذا دارت الأيام فى سرعة البرق، لتجد انها كانت على حق، توالت الليالى الطويلة الموحشة لتتأكد ان احساسها لم يخونها مرة واحدة.

بدأت ذلك المشوار وهى لا ترى امام عينيها الا الطريق الطويل الذى لا يعرف الانكسار أو الانحناء. ظلت متربعة على سحابة احلامها الوردية، هائمة وسط مشاعر الحب، فاقدة الوعى بعد أن تجرعت كأس الثقة العمياء. لم تتبين عبر الأفق البعيد المعبق بالسراب ان هناك أرض تنبت اشواكا تلقى عليها بظلال اسمها الخيانة.

بمهارة فائقة نصبت حولها فخاخ دوامة الشك.. فشلت فى مداراة مخاوفها، لم تجد طريقا إلا المواجهة الصريحة التى لم تقابل من زوجها إلا بالمراوغة والاستنكار. مع موجات الاصرار والتكرار، كانت الصرخة المحتجة التى لعنت العبث والوقوع فى براثن وتدنى زوجة الأخ اللعوب.

مع فجيعة الموت ظنت انها نهاية الحياة، لكن النبض الذى ظل يلح فى عروقها وهى تضم إلى صدرها طفلتها الصغيرة، اكد لها ان الحياة نهر هادر لابد ان يستمر.

هذا المسار الطويل اختلطت فيه معانى الحب والكراهية، فلم تجد امامه إلا التهديد بأن تحول حياتها إلى المثل. خرجت الكلمات من فمها دون ان تشعر، متصورة انها مجرد معانى للحث على التراجع والردع. لم تدرك فى تلك اللحظة أن سموم اللامبالاة تسربت إلى دمائها بقسوة، استقرت فى عروقها لتوصلها دون ان تدرى فى مواجهة مع أول اختيار.

سارت وسط طريق الخوف، لم تعرف التردد، فكرت فى تأكيد ذاتها بالجد والاصرار. حملت بين كفيها سنوات عمرها البريئة، شيئا فشيئا تربعت على كيان المشاركة الفكرية والوجدانية، فكان الحب الذى تحلى بأساور الاحتواء.

فرضت المقارنة على حياتها بالحاح، تعثرت وسط طريق التصدع العميق والفجوة الواضحة المعالم، لكن إذا بها تجد أنها مطالبة باتخاذ قرار حاسم يطيح بالقناع. تراكمت الموانع والعقبات إلى حد حجب الرؤية عما يجب أن يكون، لم تدرك حقيقة المشوار لتستسلم فى النهاية لنفس الضرب الشائك الدامى.

بعد ان قنعت بالقليل، لعب القدر مسرحيته المعهودة واقتلع من بين احضانها ذلك الانسان الذى استراح رأسها على كتفيه. فغابت تلك النسمة التى علمتها اصول الاحتفاظ بالرأس شامخا فى مواجهة سنوات الزيف. ومثل الناقوس الذى لا يمل الضوضاء، توعدت وهددت لعل الأمل يعرف

طريقها من جديد.

تراكمت السحب السوداء وقد اخفت بين ثناياها مزيد من العبث وسط مرايا متعددة الاشكال والاصناف. ففتحت عينيها هذه المرة على التلون والتعدد الذى اصبح مزاج، حتى القبح سار له مذاق. وسط هذا الطوفان لم تجد موضع قدم سوى الانغلاق على اجتهادها وقطرات من العرق مسحت عنها بعض الاحزان.

انطلقت من جديد لتلملم شراعها المبعثرة، لكن إذا بصفير رياح عاتية يحمل لها صدى صوت يصر انه جاد، انه الطهر، انه العنفوان. عندما مد لها يده لينتشلها لأول مرة ترددت وتراجعت لكن لينتصر ذلك الاصرار.

اختلطت الموازين بين خيانة اكتشفتها منذ بداية المشوار، وبين حبيب اقتلعه الموت بلا أوان. لم تشعر هذه المرة ان الزلزال سوف يحطم ما تبقى لها من قلاع واحلام، فوقعت وسط شراك المألوف، خيانة تلو الأخرى.

اختارت اسدال الستار على ما فات من خديعة والتواء، فحملتها أوجاعها بعيدا عن هذه القارة التى تفوح منها رائحة النواح، فى بقعة جديدة من الأرض بحثت عن وليدة ليست عمياء.

نفضت شوائب الماضى القريب، اختالت فى مشيتها الرشيقة، تدق أرض الاناقة بكعب حذائها العالى الرفيع، متحدية قانون الطبيعة المنحل الذى فرضه الإنسان.

وسط هطول الامطار وبرودة الصقيع، أتت إلى مسامعها همسات دافئة، انطلقت فى ذبذبات تعبث بأذنيها، تتلمس السبيل تريدها وسط واقع جديد. هامت بين طيات أمواج ذلك البحر لعله لا يذيب حبات الرمال، تلك الذرات الدقيقة الناعمة الملمس، فانطلقا ليتقاسما لحظات مسروقة من العمر الأليم. بعد ان تنازلت عن الصورة المكتملة الملامح، اكتفيا بعدة أيام من فصول العام الطويل.

مع تعاقب السنين الطويلة وقعا فى مصيدة التنازل والطمع فى المزيد من الترابط الموقوت، فكان الصدام الذى تناثرت من حوله شهب الشك والريبة. توقفت النغمات وتجمدت المحاولات واختارت المثول بمفردها أمام المرآة.

باتت روحها الضالة المعذبة تتطلع لتلك النغمة المفقودة. عادت كما بدأت المشوار تطالب صارخة للكف عن المراوغة، لكن إذا بها تضع يدها عليه فى ركن لا يستطيع منه الفرار. أمام غياب المبرر، استرسل فى لعبة الحب والندم ومحاولة غسل الماضى. أوهمها انه على استعداد للبدأ من حيث النهاية، يريد الوصال والعودة إلى ما كان.

بعد سلسلة الاختيار والوعى، مع احباط الحياة والنفس لم يكن الاعتراف إلا حلقة متواصلة من الخبث والدهاء. من فوق عرش هش تتخبطه الرياح والأمواج، اسيرة مكبلة بالاغلال، باتت تنقش فوق الصخور بحروف من دماء أنشودة وهم الحب الذى اخترعه الإنسان.

■■■


زنقة الياسمين 15
همس
الأحزان!!

***



أحسست أن الطريق طويل.. طويل، بضع خطوات بدت لها دهرا من الزمان، خطوات معدودة طال انتظارها عبر سنوات العمر. بمجرد أن أنفتح الباب، كان هناك فى انتظارها عند نهاية الممر.

لمحته من بعيد.. فأحسست بانسياب حرارة نظراته، كأنها أمواج البحر الهادئة المترامية تضمها على الشاطىء الرملى الناعم.

وسط ابتسامة فرحة اللقاء، احتضنتها كلماته البسيطة، امسك بيدها وسار فى اتجاه الصالون الفاخر. هذه القاعة الواسعة تمثل قلب القصر التاريخى المهيب، جلسا جنبا إلى جنب، حديث طويل نطقت به عيناه، بدت الكلمات والمعانى حبات من الفيروز الصافى.

قال:

ـ أنت كما أنت.. لم تتغيرى.

أحبت عباراته الرقيقة، تعرف أنه لا يجاملها، لكنه إحساس العاشق الذى لا يتبدل ولا يتغير. التفتت إليه برقة وقالت:

ـ لم أعد تلك الزهرة المتفتحة.. تساقطت أوراق الورود من حولى أمام عواصف الرياح العاتية.

اقترب منها الساقى الأنيق ببذلته البيضاء والبابيون الأسود اللامع. قالا فى نفس واحد:

ـ فنجانا.. من القهوة.

هكذا كان لقائهما الأول حول فنجانين من القهوة، عندما غذتها نظراته التى حاصرتها من كل جانب، فلم تستطع الفرار. منذ اللحظة الأولى اكتشفا معا تلك النغمة الساحرة المتآلفة، ذلك الإيقاع الحانى النادر الرقراق، تلك الترنيمة التى طالما غابت عن الكائنات.

فى ثوبها الأسود الباكى بدت كأنها بحيرة من الحزن والشغف. تاه فى ظلمة عينيها، خرجت العبارات من بين شفتيه تتلمس الطريق.

قال:

ـ أريد أن المسك بيداى..

قالت:

ـ أعيش شواطىء الحرمان والضياع.. بلا متاع.. حياتى إجهاض وترحال.

قـــال:

ـ ظلام الليل وقسوة لياليه الباردة، يزين وجنتيك بحبات من اللؤلؤ دامسة السواد.

ردت بأسى:

ـ لقد بكت عيناى طويلا.. انهمرت بحورى.. شلالات حفرت خطاها على ملامحى.

تناول يدها، أخذ يقبلها لعله يمسح عنها وهج الأيام والأقدار.. ترددت أمامه لعلها تتبين الطريق، كيف تستعيد حياتها معه من جديد؟!. كل لقاء هو موعد جديد.. يباعد بينهما بحر واسع متلاطم الأمواج، فيصرخان عبر الفضاء فى نفس واحد: «ألا يعود الزمان إلى الوراء..» ويعصف بقلبيهما ماض قديم لا يخلو من الذكريات، روعة اللقاء الأول لا يمكن أن تمحوها الأحزان.

جاء به الدهر فى زمن الجفاف، الهروب من المحن وسواد الدخان. تشابكت الأيدى وسط أوسع شوارع الحب، فكانت خطواتهما إيقاعا يتهادى على أنغامه العشاق. تطاير حولهما الحمام الأبيض مرفرفا بأجنحته مهللا، مغردا صوب السماء.

التفتت إليه وقالت:

ـ حرارة شفتيك وسط كفى البارد، أعادتنى إلى الحياة.. لهيب أنفاسك أشعل جلدى الذى أصابه الدمار.

فى كل مرة تطأ خطواتهما قصر الأحلام، تزيح عن وجهها الوشاح الأسود الشفاف. كم عشقت الهوى بين كفيه؟! تتنفس عطر يديه، ها هو ذا

يتحسس وجهها بحثا عن ملامح طالما نطقت بحروف الحب والوجد والوصال.

دون أن تدرى جرفها تيار خيالها بعيدا. انتظرت من فارسها المغوار أن يحطم الأسوار، أن يخطفها فوق حصانه الأبيض، ليرحل بها بعيدا.. بعيدا عن الضباب.

لم تدر أنه انتظر بدوره حوريته الحسناء التى جاءت بها الأمواج لتحتويه وسط فراش واسع ناصع البياض.

مرت ساعة من الزمان أشبه بالدوار، سكرة اللقاء حجبت عنهما ذلك النداء.. فإذا بهما يقفان فجأة ليودع كل منهما الآخر.

أخذ يقبلها، ورحلت يداه تتحسس ذلك الجسد المتعطش للحنان. اقتلعت نفسها من بين ذراعيه خوفا من لحظة الالتحام.

وسارا كل منهما فى اتجاه، هو يتلمس طريقه خارج القصر المهيب، وهى تترنح عبر الممر الطويل.

هناك بعيدا وسط سحابتها السوداء، سوف تنتظر لقاء آخر. ليأتى إليها صوته العاشق عبر الأمطار مرددا:

ـ أنت جوهرتى.. فلماذا تريدين منى النسيان؟!

■ ■ ■


زنقة الياسمين
16
الرداء
الأبيض
***



لمحت طرف ثوبه الأبيض الطويل يجول فى المكان.. ظنت لأول مرة انه خداع البصر.. أخذت تتلفت حولها.. فلم تر شيئا!

تذكرت الرؤية الأولى.. هذا الطيف بردائه الأبيض لم يكن ذا ملامح.. أخذها بين ذراعيه بحنان بالغ.. فإجتاحها إحساس سماوى لا مثيل له.. تمنت لحظتها ألا تستيقظ أبدا.. تمنت أن يظل هذا الإحساس يلازمها مدى الحياة.. تمنت ألا يتلاشى عبر الزمان.

لم تنس تلك الليلة عندما كانت مستغرقة فى نوم عميق وقد تدلى قدمها الصغير من فوق السرير فى ليلة صيف حارة.. فاستيقظت فزعة على يد مبتلة بالماء البارد أمسكت قدمها.

أخذ يستدرجها شيئا فشيئا كشيمة الرجال.. فاصطحبها فى رحلات ونزهات عدة. سارت بقدميها فوق صفحة النيل فرحة تجرى مثل طفلة صغيرة تكتشف الحياة المبهرة لأول مرة. من أعلى أعماق السماء لاحت لها الكعبة الشريفة من بعيد.. فتوقعت قرب الزيارة وقبول التوبة عند قبر الرسول المصطفى.

هذا الفارس المغوار حلق بجواده الأبيض بالقرب منها.. فتسلقت السلم المتدلى بلا تردد. وجدت نفسها فوق الجواد الذى انطلق بهما وسط عنان السماء.. لم تشعر برهبة أو خوف لكنها تعلقت بظهره الحبيب فمالت برأسها على كتفه. بين الحين والحين كان الفارس يلتفت إليها مستمتعا بوجهها المشرق.. ولمحت لأول مرة عينين لامعتين هما حبتان من الماس الخالص البراق اللامع.. فوق الوديان والخضرة لاح لهما جبل «أحد» شامخا يطل عليهما من بعيد.

سارت وسط المدينة الأثرية القديمة تبحث عنه.. سألت المارة الغرباء عن فارسها بعد أن وجدت نفسها وحيدة وسط السوق الكبير.. لكن لم يعيرها أحد اهتماما.

مرت بها الأيام حزينة، تتنسم عبقه ورحيقه.. تريد أن تتغنى بأنشودته العذبة تبغى المزيد. ذلك الطيف لا تعرف كنهه.. لكنه موجود يلح عليها وفق خاطره.. مع ذلك لم تمل الانتظار.. لم تقو على كتمان كلمة الحب طويلا.. فبادلها الكلمة مرددا: «نعم.. أحبك.. أحبك». استراح القلب المفعم بالهموم والجروح والدموع.. لقد عثر أخيرا على واحته، على ضالته المنشودة.

حتى هدية عيد ميلادها لم ينسها.. ففى محاولة فاشلة مع النوم.. أغمضت عيناها.. وسط السواد والظلام لاح لها لأول مرة.. طبيبا شديد الحسن.. فتاهت فى زرقة عينيه بلا رجعة.. طلبت المزيد.. فجاءها صوته رنانا خلابا يمطرها بالأمانى والوعود.

سجدت على الأرض فى صلاة طويلة.. أخذ يتأملها، جالسا على طرف السرير. حارت فى مقصده مرات.. ومرات.. حتى جاء يوم الحضرة الشريفة.. فوقف لأول مرة يؤدى الصلاة إلى جوارها يوم وقفة عرفات.

ثم غاب عنها عدة أيام وعاد إليها من جديد بعد أن أدى فريضة الحج.. حزنت حزنا شديدا لأنه لم يأخذها معه.

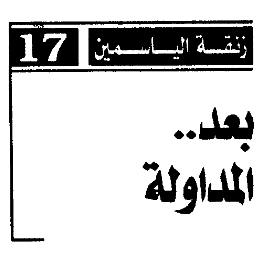
صنع من حولها سراجا من حديد.. كل من تسول له نفسه إيذاءها أو إغضابها أو إيلامها ينال العقاب.. لم تعرف معه اللوم أو الندم إلا على التساهل فى حق نفسها.

قال لها فى إحدى المرات:

ـ إن ما يعجبنى فيك.. أنك تفعلين ما يريح قلبك وروحك.. أنت تلعبين أحيانا.. تحلقين مثل الفراشة بأجنحتها المتعددة الألوان.. تحطين فوق الزهور.. إذا إقتربت منك يد تريد الإمساك والإيقاع بك.. تهربين بجدارة محلقة بعيدا.. بعيدا.. بعد أن ملأت الكون بترابك الذهبى المتساقط من فوق جسدك اللامع البراق.. فأطلق الناس أحكامهم الظالمة دون الالتفات أن هناك داخل هذا المظهر الخداع روح طاهرة تتطلع إلى السماء.. إلى الأفق البعيد.

يتراءى لها صوته يشدو إليها بأعذب الألحان.. وتحملها نغماته وسط أمل جديد فى لقاء قريب.. فباتت تتنسم الزيارة بالقرب من الحبيب.

■ ■ ■


زنقة الياسمين
17
بعد..
المداولة

❋❋❋

ـ شوف.. قد أمى وعاملة فى نفسها إيه؟

هكذا انطلقت العبارة تخرق أذنيها. لكن هذا لم يمنعها من أن تكمل ترديد «آية الكرسى» كما اعتادت سبع مرات وهى فى طريقها إلى العمل حتى يصمد قلبها المرهف المتعب أمام ما قد تصادفه طوال اليوم، ابتداء من تلوث الشارع حتى مكائد العمل.

ما سمعته لم يؤرقها، لأنها تعشق سنوات عمرها التى لم تضيعها هباء. لكن ذلك الصوت والمعنى كان مؤشرا، ليس جديدا إلا أنه مزق جروحا قديمة كانت قد استقرت فى أعماقها وخمدت.

لم تتبين وجوه الصبية الثلاثة لأنها كانت تنظر أمامها لا تعبأ بالمارة حولها. فلكل كائن طريق كتب له أن يسلكه، لكن طبيعة الصوت الذى ترامى إلى مسامعها يوضح أن الصبى فى سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة.

عندما استقرت فى مكتبها ألح عليها ذلك المدلول الذى يؤكد أن الصبية فى عمر أصغر من أبنائها بكثير. الأخطر من ذلك أنهم ينتمون إلى تلك

الطبقة التى تمثل الأغلبية والتى أصبحت تشغى مثل الحشرات القارضة التى تنهش كل ما تصادفه أمامها لمجرد إحساسها بالنقص والضعف أو الافتقاد إلى الإحساس بالأمان.

بعد أن عادت إلى البيت قررت أن تفتح جلسة المحاكمة، فقد آن الأوان لصدور الحكم بعد المداولة. فوقفت أمام المرآة راضية أن تكون فى نفس الوقت المتهم والمجنى عليه.. ثم القاضى.

بدأت بمنبت الشعر الذى استرسل إلى الوراء فى بعض الخصلات البيضاء المتموجة. الكوافير قاطعته منذ سنوات فلم تعد تطيق تلك الجلسة المضيعة للوقت بلا فائدة.

الوجه خال تقريبا من المساحيق، لأن الجو الحار وأشعة الشمس فى الصباح لا تسمح بذلك. فهى لا تطيق أن تكون قناعا من الشمع يسيل.

ثم وقع بصرها على البلوزة السوداء ذات الأكمام الطويلة، وتحتها الجونلة الطويلة الواسعة التى اختفت من ورائها معالم الجسد، فى النهاية كان الحذاء الأسود ذو الكعب العالى.

بعد أن انتهت من المعاينة وانتظارا لحيثيات الحكم. توجهت إلى المطبخ، فصنعت لنفسها فنجانا من القهوة، لينتهى بها المطاف على أحد المقاعد المريحة فى الصالون الواسع.

بعد أن أشعلت سيجارتها ومع عدة رشفات من فنجان القهوة، بدأ جسدها المنهك يستسلم لبعض الاسترخاء. فراحت تتأمل جدران وأسقف

المكان. نصف قرن من الزمان منذ أن تنفست هذه الحياة، فلاحت لها سنوات العمر.

منذ سنوات المراهقة عرفت التحدى، فلم يكن فى إمكانها الخضوع لمن يكبرونها سنا إلا بعد الاقتناع. أشقاؤها الصبيان يمكن أن يخرجوا بمفردهم، أما هى فيجب أن تكون بصحبة أحد. لم تدرك المعنى فى البداية لكنها سريعا ما تمنت أن تكون ولدا. لعنت الطبيعة والجنس الذى وجدت نفسها فى إطاره. كان بمثابة الأسلاك الشائكة التى تحول بينها وبين الآدمية أو الإحساس بالحرية.

امتنعت عن الطعام يوما كاملا. لكن لم يعرها أحد اهتماما.. تسللت فى المساء بعد أن هدأ البيت ودخلت المطبخ الكبير وأخذت تأكل.. ومازال عقلها يدور بحثا عن حل آخر.

ما أن انتهت من تناول قهوتها حتى تحسست خدها الأيمن. نعم.. هنا كانت الصفعة الأولى والوحيدة التى تلقتها فى حياتها، وكانت من شقيقها الأكبر، بعد أن أخذ ينقب فى مذكراتها الخاصة التى كان يحتل جزءا رئيسيا منها، خصته بالهجوم واتهمته بالاستبداد والعنصرية.

فما كان منها إلا أن خاصمت القلم، وانصب غضبها على هذه الوريقات الصغيرة المسكينة وأخذت تمزقها.. وقد تصورت أنها لا يمكن أن تمسك بالقلم مرة أخرى. سوف تعلم نفسها كيف تختزن المشاعر والآراء بداخلها

لتكون ملكا لها وحدها، فلن تعرف بعد اليوم للبوح طريقا.

فى ريعان الشباب تبدلت الأمور، عرفت الثقة فى النفس والطريق إلى تحقيق الذات، أملا فى الاستقلال والحرية. وبدأت تتصالح مع نوعها وفصيلتها. بل أحبت الإحساس بالأنوثة وتجربة الحمل ثم الولادة، فعشقت الأمومة، فرحت بتلك التجربة التى اختص الله بها المرأة.

عاشت فى سياج هذا الوهم الجديد الجميل. فتصدت لأشكال القبح من حولها، ابتداء بنظرات الرجال الجائعة، النهمة التى لا تعرف الشبع والتى لا تميز بين الغالى والرخيص.. وانتهاء بأطنان القمامة والروائح الكريهة والألفاظ البذيئة التى تترامى إلى السمع فى شتى المناسبات، فالسب دائما مضمونه «امرأة».

نهضت من الصالون متثاقلة، قادتها قدماها إلى غرفة الأولاد حيث الدفء الحقيقى. الغرفة خالية من أصحابها، فالحبل السرى انقطع عن الرحم، فأصبحت لهما حياتهما الخاصة المستقلة. هكذا الحال، تماما كما غادرت هى الأخرى منزل والديها. إنها تحترم وتقدر كل هذه المعانى بعقلها، لكن ما بال قلبها المتمرد الذى ضعفت نبضاته.

فما كان منها إلا أن امتنعت عن الطعام لعدة سنوات، إلا بالقدر البسيط الذى يسمح لها باستمرار خروج الهواء من الرئتين. فازدادت نحافة على نحافتها.

هجرت النادى ومعظم الأماكن العامة بعد أن أخذ يتراءى إلى مسامعها كل ما يسوء، فالانتهاكات صارخة لعروض النساء والرجال. حتى المحيط الأسرى نفرت منه، بعد أن استمعت إلى أشكال النزاع حول ميراث أو مقارنات عن الحظ والأقدار، فالأخ الكبير يسرق الإخوة الصغار. ولا أحد قانع أو راض بما هو فيه، ولا أحد لديه الاستعداد لتذوق أى نعمة من النعم التى لا تحصى ولا تعد.

تجاهلت الشاشة الكبيرة، ثم الشاشة الصغيرة ثم المسرح، فلم تتحمل أن تكون مادة للسخرية. فالعورة دائما «امرأة» فى أبشع صورها.

مع ذلك رضيت بتلك الرحلة اليومية التى تقوم بها إلى العمل، حتى لا تصبح مجرد تمثال جامد من الرخام البارد، أو مجرد لوحة زيتية خرساء فى أحد أركان البيت.

يوم واحد فى الأسبوع اختارته لنفسها لتطوف حول الضريح ذى الباب الأخضر. لكنها لم تسلم أيضا من تعليقات النسوة، فتجيء الكلمات تخترق أذنيها وهى فى أقدس لحظات التجلى:

ـ نعم.. مش مصرية!

هذا مع أن كل ما فيها ينطق بالمصرية، فيما عدا النظافة الواضحة، الرائحة العطرة والذوق الرفيع والكلمة الطيبة.

استقر جسدها على أحد أسرة الأولاد فتمددت وهى تلعن كل من طالب

بحرية المرأة دون أن يطالب بتطهير المجتمع. استسلمت للنوم دون أن تدرى، لكن قبل أذان الفجر بدقائق، وكما هى العادة فتحت عينيها. فنهضت من الفراش وكأن مسا خفيا قد اجتاح جسدها الهزيل، فارتدت الجلباب الأبيض والطرحة البيضاء وخرجت إلى الشارع.

تعلقت بنحاس الضريح الذهبى الفضى، خارت قواها بجانب العمود اللامع. أخذت تتحسسه بيديها، ثم طرقت ثلاث مرات، فجاءت إليها رائحة المسك تعبق المكان وتصيب رأسها بذلك الدوار المحبب.

انطلقت تردد بصوت هامس:

- يا سيدى الإمام.. جئت ألوذ بك من البشر ومنى.. يا سيد الشهداء.. جدك منك وأنت منه. يا صاحب العرش العظيم.. يا من كرمت النساء.. قلبى متيم.. هائم بكل ما هو جميل.. افتح لى بابك ولا تردنى.

مرت الأيام واستمر البحث عنها طويلا، حتى ورقة الرفت من العمل لم تجد من يتسلمها. وتحول الجلباب الأبيض والطرحة إلى لون تراب الأرصفة. ينظر إليها المارة ويجىء صوتهم إلى مسامعها:

- واحدة من المجاذيب!

بعد أن أدت صلاة العصر انزوت فى ركنها المعتاد بجوار الضريح، أغلقت عينيها ممسكة بالمسبحة تاركة العنان لروحها تهيم حيث الجمال وعبير المسك. فإذا بيد تحط برفق على كتفها، اهتز جسدها كأن مسا

كهربائيا قد أصابها.

تناهى إليها الصوت خافتا:

ـ هذا الوجه أعرفه.. أنت..

استدارت بوجهها إلى الوراء بسرعة خاطفة، فأشارت بإصبعها حتى لا يكمل حديثه.

قالت بصوتها الآتي من بعيد عبر الأفق:

ـ ماذا يضير الشاه سلخها بعد ذبحها.. صدر الحكم أخيرا..

■■■

عبير العمر.. الذى كان

***

أحسست فجأة أن الظلام يلفها من كل مكان، يحيط بها من جميع الأنحاء. حاولت النهوض بحذر لعلها تدرك ما الذى حدث بدون سابق أنذار. وقفت شامخة كعادتها وسط السواد، أدركت أن التيار الكهربائى قد انفصل. أخذت تتحسس الأشياء حولها مادة كفيها إلى الأمام، صارت بخطى هادئة لعلها تمسك أو تتعلق بالهواء.

خرجت من الحجرة متجهة عبر الصالة الواسعة إلى غرفة مجاورة، نفس الظلام ونفس السواد. شيئا فشيئا بدأت تشعر أنها تعرف هذا المكان. نعم.. كانت تعيش هنا فى يوم من الأيام، نفس هذا البيت الكبير، لكنه لم يكن مظلما، وليس خاليا من الناس.

وسط حجرة ثالثة أخذت تتحسس الأثاث قطعة قطعة، تمسح من عليه التراب، أن البيت الخال لم يعد به سكان. انتفض جسدها النحيف فى رعشة خفيفة، أخذت تلف وتدور وسط الفراغ لعلها تنسى هذا الظلام، لعلها تسترجع ذلك العبق الذى تغذت عليه سنوات طوال من الدفء والحنان. تساءلت فيما بينها: «أين الإنسان؟!».

لاحت لها طفلة صغيرة تشبثت بسور البلكون الحديدى المشغول على الطراز القديم. تعلقت بالجماد البارد وهى تتطلع إلى السماء، تحدق فى القمر المكتمل اللامع الذى أحاطت به هالة فضية من النور الساطع. همست الطفلة بحزن:

ـ يارب.. أتوسل إليك.. أعد لى أمى.. أريدها الآن.

أنفرط القلب الصغير من شدة الألم والحزن، فأخذ يدق بعنف داخل القفص الصغير. فى ترنيمة بائسة راحت تتوسل لخالقها لعل أمها تعود سريعا من عند الطبيب.

بينما هى مسترسلة فى مناجاتها الإلهية، إذا بها تلمح وجه الحبيبة مثل البدر تخطو خارج السيارة بعد أن فتح لها السائق الباب. لم تستطع الطفلة البريئة مداراة فرحتها ودهشتها لأن الله استجاب سريعا لدعائها. فأخذت تهرول على درجات السلم حتى تكون فى استقبالها، ولم تدرك الأم سببا لهذه الفرحة المبالغ فيها.

رغم الظلام الحالك دون أن تدرى، توجهت إلى إحدى الغرف الكبيرة. هنا شعرت بالدوار، فأسندت رأسها على الباب الأبيض الذى لم يعد ناصعا كما كان. فوق السرير الواسع رقدت طفلة صغيرة لم تتعدى عدة شهور، بدت مغمضة العينين، رقدت فى سلام.

بعد أن تملكها الخوف الذى كان، وقفت فى مكانها لا تقوى على الحراك. رأت أبيها وقد لفه الحزن الدفين خارجا من باب البيت الكبير

وبصحبته رجل لا تعرفه يحمل بين يديه لفافة صغيرة من القماش الأبيض.
انه شبح الموت الذى لمحته لأول مرة فى حياتها، فكانت تلك النظرة
الفضولية الخاطفة التى طالما ندمت عليها مدى الحياة.

وسط حجرة الطعام جلست بجانب أخيها الذى يصغرها بعدة أعوام.
بعد أن تحجرت الدموع فى مقلتيهما لم يستطيعا مضغ الطعام، تجمد الحلق
وبردت الأعضاء. لم تقوى على النظر طويلا إلى وجه أمها الحبيبة الذى
كساه الحزن الصامت المبين.

شعرت بالإعياء والغثيان، فأخذت تلف وتدور بحثا عن شمعة صغيرة أو
عود ثقاب. وسط الضوء الخافت المنساب، وعلى الجانب الآخر تراءى إلى
عينيها بابا نصف مغلق. سارت بخطوات مترددة، هذه الغرفة تعرفها جيدا،
فتحت الباب ببطء وحذر.

أمام الجدار الذى تساقطت من حوله الألوان، غاصت وسط صورة
للشاطىء الطويل الممتد الذى لم يتغير عبر الزمان. فى هذا المكان قاما سويا
ببناء قصورا وقلاعا من حبات الرمال، قنوات وطرقا سريعا ما اجتاحتها
أمواج البحر الهادئة الناعمة، وترامت إلى أذنيها الصرخات والضحكات.
أشارت إلى الصورة المعلقة أمامها على الجدار وقالت:

ـ هذا أخى الصغير.. توأم الروح.

وسط خيوط الأحلام الحريرية، لم تكن تتوقع أن أمواج البحر الحانية

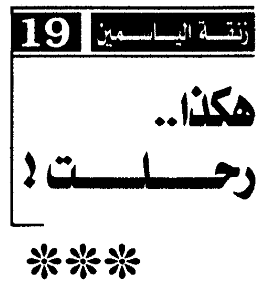
التى طالما داعبت جسدهما الطفولى سوف تتحول فى يوم من الأيام إلى غول أو مارد جبار يجتاح القصور والقلاع لتنهار البراءة والأمل فى البقاء. فإذا كل واحد منهما فى مكان.. بعيدا.. بعيدا عن الآخر حيث طريق السراب.

لم تجد لنفسها مكان، فجلست على الأرض تسد أذنيها حتى لا تسمع صرخة أمها التى شقت عباب السماء، لوعة على الابن الذى سقطت مقاتلته وسط البحار.

سحبتها غريزة البقاء، وكبر الأطفال غدو رجالا ونساء. لكن العالم لم يعد كما كان، انحرفت الطرق، وتدانت الجبال والمرتفعات. تداخلت وتشابكت النغمات والألحان ليصبح الإيقاع صخبا يصم الأذان.

بين جنبات هذا البيت الكبير فرت فى هلع. عادت لتعيش بين الأطلال، بحثا عن حبيب وسط الظلام، معطية ظهرها لبصيص من نور اسمه الحياة.

■■■


زنبقة الياسمين
19
هكذا..
رحلت!

***



احتلت المقعد الخلفي من السيارة، بينما جلس السائق خلف عجلة القيادة. عندما هم بإدارة المحرك استعداد للمسير، اقتربت امرأة تلتحف السواد تطلب منه بضعة نقود.

لم تلتفت للمرأة التى قاربت حوالى الستين من العمر، بل ظلت تنظر أمامها فى الفراغ الواسع.. نظرات زائغة لا تعبر إلا عن الضياع والاستسلام.

لم تفق من سرحانها إلا على صوت المحرك وقد بدأ السائق يهم بالمسير بعد أن استجاب لطلب المرأة.. لكن فجأة توجهت المرأة إلى النافذة الخلفية حيث ألقت فى وجهها بعدة كلمات:

ـ قولى «الله» عشر مرات حتى يرفع عنك الكرب.

قبل أن تفيق من وقع هذه الكلمات التى خرقت أذنيها لتستقر فى قاع قلبها، كانت السيارة قد انطلقت لتشق الشوارع والميادين التى بدأت تشهد زحف الناس التدريجى بعد انقشاع خيوط الفجر.

قالت لنفسها:

ـ نعم.. إنه حقا كرب.. وأى كرب؟ لقد كانت المرأة المسنة على حق..

لكن الغريب لماذا اختارتها هى بالذات؟ أهى رسالة ما حملتها إليها هذه المرأة الطيبة؟ ثم أخذت تتمتم باسم «الله» عشر مرات.

بعد عدة أيام جال بخاطرها أن تعود مرة أخرى حيث كانت تقف السيارة لعلها تعثر على المرأة الملتحفة بالسواد. لكنها ترددت، حتى لو وجدتها، ماذا ستقول لها؟ يكفى انها كلما تذكرتها تردد اسم «الله» عشر مرات، خاصة قبل ان تسلم جفناها للنوم كل ليلة.

فى أحد الأيام قاربت الشمس على المغيب وسط أحضان السحاب الملغم بالغيوم. بعد ثوان انطلق الآذان يشق انحاء المدينة القديمة الحديثة محلقا وسط أعنان السماء.

نهضت متثاقلة من فوق سجادة الصلاة. فعلى الرغم من جسدها الهزيل، فإن تخلخل ركبتيها دفعها للاستناد بكفيها على الأرض حتى ترفع جسدها للنهوض.

بخطوات هادئة فتحت باب الشقة بحثا عن القطان الأبياضان، كانا فى نفس المكان الذى يعتلاه دائما فوق الدواسة. فتوجهت إلى المطبخ، ثم عادت وهى تحمل طبقاً صغيراً مليئا باللبن وضعته أمام القطين، ثم وقفت تتأملهما بحب.

اقتربت القطة الأولى لترشف بلسانها السائل الأبيض، بينما وقفت الأخرى تنتظر دورها. أصابها هذا المنظر بالدهشة! لكن سريعا ما أدركت

المعنى الفطرى، لابد أن القط الذى تناول اللبن أولا الذكر.. ومعنى ذلك أن التى تنتظر دورها فى استسلام الأنثى. حاولت التدخل متصورة انها يمكن أن تحدث نوعا من العدالة بين الجنسين. لكن سريعا ما أدركت أنها أمام حيوان، فابتسمت ساخرة من نفسها.

فى اليوم التالى وليس كعادته، جلس أمامها الصبى. عندما رفعت عينيها عن الملفات المتراكمة أمامها. قال:

ـ الشمس تشرق كل يوم وتغيب.. لكن ليس هناك أدنى شك أنها موجودة ومع ذلك لا نستطيع أن نلمسها؟

ردت بسرعة بديهية واستغراب:

ـ نعم.. لا نسطتيع أن نلمسها..

عاد فقال:

ـ هكذا أنت.. كنت دائما موجودة.. لكننى لم أتخيل اننى يمكن أن المسك بيداى.. كنت دائما بعيدا عنى مثل الشمس..

غضت بصرها وأجابت:

ـ لقد فات أوان هذا الكلام.. فهذه المعانى لم تعد فى موضعها المناسب.

باندفاع سنوات العمر الشابة قال:

ـ ماذا تظنين؟ ألست رجلا أمامك؟

وسط سراب السنين أجابت بصوت هادىء:

ـ أنت رجل بدون شك.. لكن الزمن لم يعد الزمن الذى ألفته.. والشمس التى كنت أراها بالأمس لم تعد هى التى أراها اليوم.

قال بإصرار:

ـ الحب يطيل العمر.. والسنوات تجرى مثل الرياح العاتية.

ردت بسرعة وثقة:

ـ من قال لك إننى أبغى الخلود.. فكلنا أشجار مصيرها الاقتلاع.. أو أزهار نهايتها الذبول.

بغرور الحلم الخداع والرغبة فى الوصول إلى اللعبة المزيفة قال:

ـ لماذا الامتناع؟ ان عروقك مازالت تنبض بالحياة، فما بداخلك يطل من عينيك.. الحزن والسعادة، المقاومة والاستسلام، إنه التعلق بالحياة رغم غدر الأيام.

لم تعد لمثل هذه المعانى والكلمات صدى بداخلها، فالتفتت إليه بعناد وقالت:

ـ لا داعى للانخداع والانسياق وراء المظهر.. فإذا كنت ترانى فى خصوبة الأرض، فهذا هو السراب، والأفضل لك أن تبحث عن الحقيقة.

رد على الفور:

ـ الحقيقة تقول إننى احبك.. وكنت دائما أحبك.. لكن طوال الزمان لم أعرف للبوح طريقا.

انحنت على الأوراق المتناثرة أمامها، هذه الوريقات الصغيرة لن تخذلها أبدا. أما الأمان فقد عرفته فى لحظات الخلوة النادرة.

الآن.. فى هذه الحجرة الطويلة الباردة القابعة أسفل المبنى الكبير، استندت على الجدار البارد تقاوم بلا جدوى رغبتها الملحة فى إفراغ كل ما فى معدتها وجوفها الفارغ منذ الأمس.

فى ذلك الصباح كان عليها الانتهاء من العديد من الاجراءات حتى لا يفوتها آذان الظهر، لتقام صلاة الجنازة فى الجامع المقابل. وسط سيل الدموع واللعاب، اختلطت المشاعر والأحاسيس. خارج الحجرة اللعينة وقف الأهل والأصدقاء ينتظرون منها أن تقوم بما لم يكن متوقعا منها.

لم تكن تعرف ما يمكن أن يحدث بالداخل، لكن بخطوات واهنة تقدمت من الجسد المسجى أمامها. كان الجسد الحبيب باردا كلوح من الثلج، فأخذت تضمه إلى صدرها لعلها تعيد إليه بعض الدفء.. لكن ليس الحياة.

على الرغم من إدراكها ان كل شيء قد انتهى بالفعل، إلا أنها اخذت تمسح على شعر أمها الذى احتلته بعض الخصلات الأمامية البيضاء، الجميلة التى ورثتها عنها. لن تتركها للغرباء، وبيديها اخذت تساعد اثنتين من النسوة، فجاء الماء المنساب ليكون أكثر حنوا من الزمان، فأصبح الجسد أكثر دفئا وأكثر ليونة واستجابة. أخذت تتحسس ذلك الوجه الذى انفرجت أساريره.. تغرقه بالقبلات تارة، وتتمتم فى أذنيها بكلمات تارة

أخرى.. كلمات لا يعرفها إلا الله وأمها.

بعد أن بدا لها الملس الأبيض ناصع البياض، أخذت تبلله بماء الورد، ثم تذكرت إناء الماء الصغير وبداخله المسبحة ذات الحبات الصدفية الدقيقة، فبالأمس قرأت عليها سورة يس مئات المرات آملة ألا يأتى الكرب. فهرعت إلى حقيبتها الملقاة فى أحد الأركان لتخرج الإناء الذى لابد أنه أعد لهذا الغرض دون أن تدرى، وبعد أن بللت الملس الأبيض بالماء الطاهر، انبعثت فى الحجرة رائحة بخور ألفتها من قبل.

عندما كانت تتخيل تلك المراسم كان يتملكها الجذع والخوف، فلم تكن تدرك أن المراسم الشرعية بهذا الطهر والصفاء. لكن الصدمة التى تملكتها واجتاحت جسدها، فألقت بنفسها فى أحد أركان الحجرة حيث خارت قواها وظلت جاثية على ركبتيها، أن أمها لم تعد أمها.. فليس من عاداتها أن تتركها هكذا.. إنها لا تستجيب إليها.. لم تعد تعبأ لدموعها.

هنا فقط أفاقت على صوت المرأة السمينة تقول لها:

ـ أين الزكاة من أجلها؟

فى البداية لم تدرك المعنى المقصود، بينما ظلت دموعها تنسدل وكأنها ستائر شفافة تحجب عنها ماضيا بعيدا مليئا بالأحزان. ماضيا وقعت فى هوته الساحقة، متوهمة عبر السنين أنه قد انطوى فى عباءة النسيان.

مرة أخرى جاءها إلحاح المرأة تقول:

ـ أريد نقوداً.. أى صدقة..

مدت لها يدها بالحقيبة كلها وهى تردد وسط بحور عينيها:

ـ خذى عنى كل ما تريدين.. خذى كل شىء.. لم يعد هناك ما يهم.

ثم أخذت تقول بصوت خافت بعد أن أخفت وجهها بكلتا يديها «سئمتك أيها الحب.. سئمتك أيها الموت.. لقد انكشفت لعبة الحياة المخادعة».

رغما عنها تمالكت نفسها، وخرجت أخيرا من باب الحجرة الطويلة تكاد تترنح أمام الوقوف. لم يقترب منها أحد، لكنها أحست بالنظرات والأعين تلفها من كل مكان.

دون أن تدرى عبرت الطريق إلى المسجد المقابل. بعد آذان الظهر الذى اخذ يدوى فى المكان، خلعت حذاءها ووقفت تصلى خلف الرجال بعيدا عند الساتر الخشبى.

بعد الانتهاء من الصلاة، ووسط دموعها التى اخذت تتساقط دون انقطاع، اقترب منها أحد العاملين بالمسجد ليقول لها بكلمات موجزة:

ـ المرأة لا تصلى صلاة الجنازة..

نظرت إلى الرجل بعينين محترقتين ملتهبتين، ثم القت فى وجهه بعدة كلمات دفعت به إلى الابتعاد عن طريقها إذ قالت:

ـ ابتعد عنى هذه اللحظة واتركنى أصلى..

فى ثوان اختفى الرجل من أمامها. ومن بين فتحات الساتر الخشبى، اخذت ترقب المصلين لتفعل مثلهم، إنها أول مرة تصلى صلاة الجنازة.

سار موكب السيارات الطويل يشق شوارع وسط المدينة الحزينة. بعد أن القت بجسدها على المقعد الامامى فى استسلام، مال رأسها إلى الوراء فاغمضت عينيها ليلفها السواد.

هناك عند المبنى العتيق، فتح لها الرجل العجوز الباب الخشبى الكبير، بعد ان نزلت عدة درجات من السلم القديم، امتلأ المكان بالكائنات البشرية. فإذا بيد تمتد إليها لتحمل عنها حذاءها الاسود، نزلت المرتفع العالى حافية القدمين، ووجدت نفسها أمام فتحة الباب الحجرى الكبير.

هنا سيرقد الجسد الملفوف بالملس الأبيض.. لم يكن المكان مظلما كما هى العادة، لكن النور انبعث من الداخل ليلفها من كل جانب ويطيح بها بعيدا.. بعيدا وسط تراتيل القرآن.

بعد مشوار العودة واللاعودة، صعدت درجات السلم واحدة.. واحدة.. بهدوء وبطء. فى الماضى كانت تصعد نفس الدرجات ولكن عدوا كأنها فى سباق مع الريح. فجأة، نظرت خلفها فإذا بالقطان الأبيضان يتعقبانها، لكن بهدوء وصمت.

■■■

الفهرس

صدر للكاتبة

- التاريخ يصنعه المرضى... ترجمة من الفرنسية إلى العربية - دار المعارف
- حوار الحب... مجموعة قصص قصيرة - الهيئة العامة للكتاب
- رسائل إلى ابنتى مشاكل الحب والزواج والجنس... دراسة - دار مدبولى للنشر
- عزيزى فلان... ترجمة من العربية إلى الفرنسية - الهيئة العامة للكتاب
- سعدية... مجموعة قصص قصيرة - دار مدبولى للنشر
- من أنا؟!... رواية - الهيئة العامة للكتاب
- ليلة القدر... ترجمة من الفرنسية إلى العربية - دار مدبولى للنشر
- عيد ميلاد الأميرة... أطفال - الهيئة العامة للكتاب
- جسم الإنسان... أطفال - دار المعارف
- حوار الشرق والغرب... سلسلة مقالات - دار المعارف
- الطفلة المدللة... أطفال - دار المعارف
- الحمار النافع... أطفال - دار المعارف
- النجم الكبير... أطفال - دار المعارف
- عاصمة بلا رتوش.. رواية - الهيئة العامة للكتاب
- رياح الجنوب.. رواية - الهيئة العامة للكتاب